محمد إسماعيل

باب الزوار

رواية ◄ دار العين للنشر

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

باب الزوار

رواية..

الكاتب: محمد إسماعيل

نبذة عن الرواية..

وطن يشتعل منذ سنوات وتأكل ناره أبناءه. ما الذي حدا بهذا الزائر ليتمسك به أكثر من سكانه؟ خمسة عشرة عاما مرت على محسن مدرس اللغة العربية بالجزائر، هرب خلالهم كل ضيوف هذا البلد والكثير من المواطنين مع بداية العشرية السوداء. حتى زوجته تركته يرجع وحده للنار. بين باهية التي هربت بابنتها الصغيرة إلى بلجيكا. وزوجها صالح السكير الذي بقي مع ابنتيه فاطيما ولمياء. وذلك المراسل المجهول الذي دأب على كتابة اعترافاته المخيفة لمحسن في رسائل لا تحمل عنوانا أو توقيع. وفريـال، الأمازيغية البريئة التي حملت فوق كاهلها مراثي قومها وعنصرية بغيضة تداولوها بينهم وبين عرب الجزائر حتى قتلت، وقت كان القتل إجراءً يوميًا لا يلفت الأنظار.

رحاة كبيرة عركت البلاد لسنوات بين فكيها من الإسلاميين والأمن الوطني، تضافرت بداخلها حكايات صغيرة لتخرج ملحمة الأحياء والأموات من باب الزوار.

حقبة حزينة من بلد المليون شهيد، وطن تكالب عليه الطامعون في خيراته غاضين الطرف عمن يسقطون من ضحايا. بين جزائريين هربوا وآخرون استشهدوا ومصري تشبث بالبقاء رغم الطوفان، قد حفظنا العهد أن تبقى الجزائر. فاشهدوا اشهدوا... ليبقى الحال على ما هو عليه لكل الأطراف سواء التي ارتضت البقاء في الجزائر حتى ولو كانوا من غير أهلها، ومن فارق الجزائر واختار عيشة المنافي من أجل اللا غاية، وهي قمة المفارقة التي تقدمها الرواية من خلال شخوصها الممزقين بنار الصراع الأزلي بين الأرض والمستعمر من جهة، وبين الشخوص وحروبهم الاجتماعية الداخلية النفسية والخارجية مع إشكاليات الواقع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإهداء

إلى أيام لا تُمحى من الذاكرة...

إلى الجزائر

محمد إسماعيل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

نزلت فاطيما من السيارة حاملةً حقيبتها المتخمة بالكتب الجامعية، لوَّحت لفريال وحميد قبل أن تستدير بقوامها المعتدل لتهبط مع الشارع الضيق متجهةً إلى منزلها. هواء البحر يُغالب شعرها الأسود القصير فيتخلله رغم كثافته ويُجبره على إطاعته ولو على مضض. وحدها رياح الشتاء تقدر على تحريك تلك الكتلة القاسية فوق رأسها الجميل.

أسرعت في مشيتها كما تفعل عادةً في شارعها. تخشى على ملابسها من رائحة الشواء التي تشتهر بها منطقتها القريبة من المجزَر والبحر معًا. لم تكن تعبأ كثيرًا بتلك المشكلة، بل لم تشعر بها قبل دخولها الجامعة. أبناء المدرسة كلهم من أنحاء حسيبة بن بوعلي ومحيط بلوزداد لا فرق بين طالبٍ وآخر، بعكس جامعة باب الزوَّار التي يرتادها أبناء نادي الصنوبر وبن عكنون وحيدرة، أحياء راقية وسيارات فارهة يبدأ على إثرها اتضاح التباين بين الطبقات.

دارت يمينًا لتدخل منزلها. بحثت في حقيبتها على المفتاح وهي تصعد السُّلَّم. تعجَّبت من ضوضاء تصدر من الطابق الأول حيث تسكن، مدت بصرها لأعلى فوجدت باب شقتها مفتوحًا والداخل يعجُّ بالحركة والضجيج.

سبعة أعوام قد خلت منذ 1991، آخر عام تسامح فيه الجزائريون مع أبوابهم ونوافذهم المفتوحة قبل أن يُثقلوها بالقضبان الحديدية. قُبض قلبها لهذا المنظر، فمع ثقل الإرهاب الجاثم، لا يُترك بيتٌ مفتوحًا إلا لأمرٍ جلَل.

صالح والدها متوسطًا حجرة الاستقبال المقابلة للدَّرَج، حافي القدمين أشعث الشعر مرتديًا معطفه الأصفر فوق ملابس المنزل ويدخن بعصبية. يُجالسه ثلاثة من الجيران يتمتمون بهمهمات غير مفهومة فيما انطلق يصرخ:

- العاهرة.. القَحْبَة!

- الغائب عذره معه حتى يرجع (يجامله أحد الجيران مجيبًا بصوت ممضوغ).

- لن ترجع، هربت مع عشيقها.. الفاسقة! سأجدُها لأسترد ابنتي زهرة ثم ألقيها للكلاب.

كلَّل التوتر المجلس حتى إنه لم يلتفت لدخولها أحد. أن تمتلئ صالة منزلك بالغرباء حتى لا يلتفتون لدخولك ليس بالأمر المعتاد. لم يسمح الوضع لها بالاستفسار فاندفعت نحو حجرتها وأخواتها علَّها تفهم ما يحدث. وحدها أختها الوسطى بالداخل تبكي. سألتها بصوتٍ متهدج قلق:

- ماذا حدث يا لمياء؟

خرجت إجابتها متقطعةً من البكاء وكلماتها مخنوقة، فسَّرتها بصعوبة:

- اختفت أمك يا فاطيما، عدتَ من المدرسة فلم أجدها ووجدت أباك هائجًا. باهية اختفت وزهرة معها.

عادت لمياء إلى النحيب من دون أن تلتفت لفاطيما التي أخرستها الدهشة. ألف احتمال من الممكن أن يكون وراء اختفاء شخص أو أكثر، يبقى الأسوأ هو الأرجح دائمًا في بلاد نخر الإرهاب في أوصالها. كيف يجرؤ أبوها على رميها بافتراءاتٍ بدلًا من أن يبحث عنها أو يبلغ الشرطة.. استخرجت شجاعتها من حنقها وخرجت لوالدها وسط جيرانه.

افتعلت تماسكًا زائفًا كشفه ارتجاف صوتها، وهي تطلق عبارة صارمة:

- توقف عن الإساءة لأمي. عسى اللـه أن يردَّها لنا سالمة.

هدأت الصالة تمامًا إثر جملتها حتى استدار صالح ناظرًا إليها ممتعضًا، تقلَّص وجهه ومدّ رأسه للأمام، خرج صوته متحشرجًا، واندفع الرذاذ من فمه وهو يصرخ:

- أنا الذي سيأتي بها؛ لأقتلها. مَن تختطف ابنتها لتهرب مع آخر لا تستحق الحياة.

كرهته في هذه اللحظة أكثر مما تكرهه أصلًا. كسا الاشمئزاز وجهها وهي تجادله:

- ألا تخاف عليها؟ الظلام يقترب ونحن لا نعلم عنها شيئًا.

عادت خطوةً للوراء قبل أن تستسلم لدموعها منهارةً، فخرج صوتها متقطعًا وهي تقول:

- ألا تدرك خطورة اختفائهما وسط كل هذا الإرهاب؟

- أي إرهاب الذي أخفى أمك وأختك وملابسهما وأوراقهما؟

خرجت الجملة من بين أسنانه السوداء مرتبةً بحكم تكرارها منذ الصباح. استوعبت الجملة ببطءٍ فضربت رأسَها الصدمةُ على دفقات متوالية. عادت إلى غرفتها لا تدرك مواقع قدميها، أنهكها الخبر، غالبت دموعها وجلست على سريرها تفكر.

كيف هربت باهية؟ ولماذا؟ وإلى أين؟ ولِمَ لَمْ تترك زهرة أو تأخذهن جميعًا معها؟ كيف بدأ هذا الكابوس من دون مقدمات؟.. كيف يمكن لشخصٍ واحدٍ أن يدير دفة حياة أسرة بأكملها بقوة لتنحرف عن مسارها قبل أن يقفز هو؟ أي أنانية تلك؟

هل يمكن أن تُفاجأ في الثانية والعشرين من عمرك أن أمك قاسية لهذا الحد المخيف؟

لم تكن حياتها سهلة مع صالح، ليست حالة فردية؛ فشيوع البلاء يفرض التعاسة على الجميع. تتضاءل المشاكل كلها أمام الموت الذي لم يَعُد هناك أكثر من أخباره يوميًّا، حتى أصبح كالوسادة الثقيلة التي نسجت نفسها فوق رؤوس الجميع فأثقلت كاهلهم وحجبت عنهم الشمس. ما الذي يؤلمها أكثر؟ هروب أمها من هذا الجحيم وفراقها؟ أم كونها هربت من دون أن تأخذها معها؟.. بيدَ أن هروب أمك هو أثقل

وطأةَ من موتها، من الصعب فهم هذا الإحساس أو تصوُّره فلا يعرف الشوق إلا مَن يكابده ولا الصبابة إلا مَن يعانيها.

صوَّر لها عقلها أن هروبهما أهون كثيرًا من انتظار خبر العثور على جثتيهما في الصباح، ورغم كون كلا الخبرين موجعًا حدَّ الموت، فإن ما رجَّح كفة الهروب هو اختفاء ملابسها وأوراقها والصغيرة زهرة. لم تترك باهية شيئًا وراءها أخذت كل ما تملك، لم تترك لها حتى راحة الشك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

وقف محسن في طابور جوازات مطار الهوَّاري بومدين بلا رغبة في التقدم لدخول الجزائر ولا نيَّة في العودة إلى مصر. وقفتُه في الصف أشبه بخشبةٍ طافيةٍ على سطح تُرْعة تتحرك وفقًا للتيار.

دوره التالي، يقف مواجهًا للافتة "شخص واحد على مرة ([1])" ترجمة حرفية من الفرنسية، بلا رفيق يمازحه فينتقدان معًا متن تلك الجملة كما اعتاد بلا مللٍ. تقدم خطوتين، مد جواز سفره للضابط الذي تفرَّس في ملامحه، الشعر الرَّمَادي، الوجه اليابس الملفوح، القَسَمات الحادة، وحده شرود العينين طرأ على صاحب الصورة. منح جوازه ختمَ دخولٍ آخر ثم مده إليه في صمت. تقدم بخُطًى قصيرة منهكة نحو سيارات الأجرة، أخبر السائق بوجهته في اقتضاب:

- حسيبة بن بوعلي.

أرخى رأسه على المسند بينما أولت السيارة ظهرها للمطار واتجهت به غربًا نحو المدينة. كل عودة كان ينظر من الزجاج بتشوُّق، يستوحش دومًا الجبال الخضراء بجانب الطريق والخراف البيضاء وهي ترعى في الربيع والشتاء، البحر الذي يبدو أحيانًا على استحياء فتلتقي زرقته بزرقة السماء، في مشهدٍ يوحي له بأن البحر هو أحد بوابات الجنة على الأرض.

هذه المرة آثر الصمت وأغمض عيناه كَيْلَا يُجاذبه السائق أطراف أي حديث. فرض شريط حياته نفسه على المشهد فعاد يلقي على ذاكرته ما ألقاه مرارًا وتكرارًا طوال أربع ساعات قضاها في الطائرة قادمًا من مصر.

نزح إلى الجزائر منذ خمسة عشر عامًا، جاءها مع القادمين من زملائه تحديدًا في 1982، حيث كانت داليا ابنته في الثالثة من عمرها وكانت أمُّها هي من دفعته دفعًا للقدوم إلى هنا. عمل مُدرِّسًا للغة العربية، ترقى في عمله وكبرت ابنته، صار منزله هنا أكبر وأحدث من منزل عائلته القديم بالدلتا. قال محدثًا نفسه: "كبرنا هنا يا سناء، داليا تعلمت هنا وتتحدث الدَّارِجة الجزائرية أفضل من العامية المصرية. أنا لا عمل لي في مصر. كل ما قطعنا قَطعناه معًا، أنتِ مَن قرر التوقف عن السير وتركتِني أرجع وحدي. اللعنة على الإرهاب الذي فرَّق بيننا".

مهلًا، ليس هذا تحديدًا ما جعلها ترفض العودة معي. ربما كان الوضع الأمني هو السبب الذي قالته له ولكل من يسأل. لكنه يعرفها جيدًا، هي مَنْ عاشت معه كل هذا الخوف ولم تفكر في العودة. ما حملها على تركه إلا ما سمعته من حديثه لابنته. هل كان يقصد حقًّا ما فهمت؟

يُبالغ في الإنكار حتى بينه وبين نفسه. من منَّا يستطيع مواجهة نفسه بأنه وحده سببُ انهيارِ بيتٍ بالغ في تشييده؟ يأتي الإرهاب على طبق من فضة ليزيح ذلك العبء عن كاهلك المثقل.

ليس بالرجل شديد الطموح، يعرف هذا عن نفسه كما تعرفه زوجته. هو خير مثال لرجل الشارع العادي، قانع بوظيفته وزوجته وابنته، قليل التطلع شديد الرضا.

اكتشف عند وصوله الجزائر للمرة الأولى أنه أكثر أهميةً مما يظن، فهو يجيد العربية الفصحى كما أنه يفهم جيدًا العامية المصرية، بل يتحدثها أيضًا. قادم من بلد عبد الحليم حافظ وفاتن حمامة وأمّ كلثوم. فوجئ بمكانة خاصة قلّده إياها جيرانه وزملاؤه ورؤساؤه وتلامذته.

أضفت عليه مصريته عباءة ثمينة من الاحترام والتقدير، على عكس ما سمع ممن سافر إلى الخليج من أقرانه. حقًّا سيعودون أكثر ثراءً منه، سيقولون سيارة بدلًا من "عربية". بوسعه هو أيضًا أن يغيِّر اسمها لـ "كارروسة" كما يسميها الجزائريون في لهجتهم التي أتقنها كأبنائها، ولكن هل يوازي الثراء ما يشعر به هنا من إجلال؟

أتى البلد وكل ما كان يعرفه عنه كان مصدره فيلم "جميلة بوحريد"، التي سرعان ما اكتشف أن اسمها الحقيقي بوحيرد وأن الفيلم الجميل لم يكن أكثر من عمل درامي لطيف وأن أبطال التحرير كُثُر.. تُذكر جميلة وسطهم على استحياء فيما يعتبرها البعض خائنةً للقضية بزواجها من محاميها الفرنسي. لكل حقيقة أكثر من وجه، حقًّا كل عام كان عدد المصريين يتناقص، الذروة كانت في السبعينيَّات، أما اليوم فالفرار هو سيد المرحلة. ربما كان حقًّا آخر مصري باقٍ هنا.

قطع السائق حبل أفكاره مرتين ليستفسر عن العنوان حتى توقف نهائيًّا معلنًا الوصول.

نزل من السيارة حاملًا حقيبته التي أوكل إليها مهمة إرخاء كتفين عريضتين طالما بالغ في شدهما. "لا بأس حقًّا بهذا المنظر المُتهدِّل، فأنا بالفعل مكسور".. هكذا حدثته نفسه.

هبط درجتين لينزل إلى باحة المبنى، على يمينه حجرة الحارس التي هجرها وعاد لبلدته منذ أعوام، فقد باتت تلك الحجرات مستهدفةً لسهولة اقتحامها. فكَّر محسن: "ماذا لو أصابني مكروه؟ حتى الإسعاف ما عادت تأتي للمنازل بعد أن نُصب لهم أكثر من كمين قتلوا فيه عند تلبيتهم نداء الواجب. الكل يتخلى عن واجبه إلا أنا، أو هكذا أفضِّل أن أرى ما أفعل..".

نظر تلقائيًّا على يسار رَدْهَة مدخل المبنى كما اعتاد ليرى صندوق بريده. من غير المتوقع أن يجد به ما يستحق القراءة، فقد عاد لتوِّه من مصر. لكن ظرفًا أبيض كان نائمًا بالداخل، توقف ليلتقطه، أيُّ طارئ سيكسر ملَل حياته الجديدة مُرحَّب به حتى وإن كان خطابًا قديمًا ضلَّ طريقه فتأخر في الوصول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

لم تطُلْ جلسة الضيوف في غرفة الاستقبال، فالمغرب يقترب وستُغلق المحال لاحقًا ويصبح السير في الشارع مغامرة لا يجرؤ عليها الكثيرون. بقي صالح وحده بالصالة فيما ظلت ابنتاه بغرفتيهما تبكيان في صمت. وضع مرفقيه على مساند مقعده وشبَّك أصابعه ليريح رأسه فوق كفيه. نصف مصابيح الثُّريَّا محروقة لتزيد المكان كآبةً بإضاءتها الصفراء الباهتة.

باهية هربت ومعها ابنته زهرة. لم يطرأ جديد عليهما، فلِمَ هربتا؟ ولِمَ اليوم؟ كيف لم يلحظ مقدمات هذا الهروب؟ ألم تخطط له تلك القحبة؟ هل استيقظت وقررت أن تفعلها فجأة؟

ليس بالزوج الصالح ولا بالأب العَطُوف، لكن ليس هكذا تجري الأمور. هي لم تطلب الطلاق ولا مرة واحدة، ولم تأخذ سوى زهرة وتركت لمياء وفاطيما. كيف يمكن فهم ذلك كله؟ كيف سيراه الجيران بعد أن هربت منه زوجته؟

"لعن اللـه التفكير ولعنك ألف لعنة يا باهية".

في مثل هذا الوقت من كل يوم يكون قد أنهى عمله بمشغله ومرَّ بالحانة الصغيرة المقابلة للبحر بباب الواد. فيشرب نصف زجاجة النبيذ وسط ندمائه، ثم يضع له الساقي نصفها المتبقي في كيس ورقي ليكمله في الدار وسط استهجان زوجته وبناته الذي أصبح جزءًا من روتينه اليومي. أما أنه لم يذهب إلى عمله اليوم ولم يمرَّ بالحانة، فقد تعيَّن عليه أن يذهب من فوره لشراء زجاجة نبيذ رخيصة يذيب فيها أفكاره. لا يمكنه قضاء الليل العادي واعيًا، فكيف بليلةٍ كتلك؟

لم يغيِّر ملابسه، لا وقت لديه، فقط وضع نظارته السميكة على عينيه الخضراوين، آخر ما تبقى من أصوله الشرقية حيث وُلِد بولاية سطيف، ثم خرج متمهلًا كسير الرأس ليقتضي قِنِّينَته اليومية.

دق جرس الهاتف فهُرعت فاطيما وأختها لتجيباه فربما كان هناك خبر.

عاد صالح حاملًا زجاجته في كيسٍ ورقيٍّ بُنيّ اللون. كانت ابنتاه جالستين في حجرة الاستقبال واجمتين. نظر إليهما متسائلًا إن كان قد جدَّ جديد، أشاحت فاطيما بوجهها عنه، ففضلًا عن أنها ورثت عن أمها تحميله ذنب شظف العيش بسبب إدمانه الخمر، فهي تراه الآن السبب الرئيس لاختفاء باهية وزهرة.

تماسكت لمياء للمرة الأولى منذ الصباح، نظرت إلى أبيها وألقت بالقنبلة:

- باهية اتصلت.. من بروكسل. لقد أخذت زهرة وسافرت هذا الصباح.

ثم عادت فأجهشت بالبكاء قائلةً:

- لن نراهما ثانيةً.

سقط فك صالح السُّفلِي وتدلى لسانه قليلًا من الذهول. نفض رأسه بغتة قبل أن يسألها: "ماذا؟".

- هذا ما أخبرتنا به. ذهبت لتعمل مع خالتي في المطعم. ستُلحق زهرة بمدرسة هناك..

دفنت رأسها بين ركبتيها المستويتين أمام وجهها لتبتلع ما بقي من المفاجأة؛ فقد أسرَّت لهما باهية بالنصف الآخر من الخطة:

- لقد بعت ذهبي لأدبر مبلغ سفرنا. سأدخر من راتبي حتى أوفر نفقات رحلتكما لتلحقا بنا ونهرب معًا من الجزائر للأبد، وليبقَ أبوكما ما شاء له البقاء، لا تخبراه بخطة سفركما كيلا يُفسدها.

ترنَّح صالح قليلًا رغم أنه لم يشرب بعد، باغتته المفاجأة، نهشت رجولته بفعلتها. كوَّر قبضة يسراه وأخذ يُشيح بها هاتفًا:

- القحبة، سرقت ابنتي وهربت، سرقت مالي وهربت!

تقدم نحو ابنتيه متوعِّدًا بيده المعقودة، بينما ضمت يُمناه الزجاجة إلى قلبه. صرخ فيهما قاذفًا رذاذ لُعابه:

- لن أدَعها تطأ هذا الدار وإن قبَّلت التراب! أتفهمان؟

أخرج زجاجته من كيسها وعاجَل سدادتها بأداة كانت في جيبه ثم أخذ يعبُّ منها ما استطاع. صوت ابتلاعه وزمجرته كانا فوق قدرتها على الاحتمال، وَشَى وجه فاطيما بكامل حنقها عليه قبل أن تجيبه:

- اطمئن، هي لن تطلب العودة حتى وإن أكلت التراب أكـلًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

أوقف حميد سيارته أمام باب منزل فريـال بمنطقة بلكور قبل أن ينطلق مسرعًا إلى داره بنادي الصنوبر. استقبلتها أمها كنزة بعبوسها المعتاد:

- لماذا كل هذا التأخير؟ كنتِ مع العربي؟

أمازيغية متعصبة، لا تملُّ أبدًا من التعبير عن كراهيتها للعرب. تعتبرهم الغزاةَ المغتصبين لمُلْك الأمازيغ وسيادتهم على شمال إفريقيا.

أمالت فريـال عنقها الأبيض البَضّ فانسدل شعرها الأحمر الطويل خلف كتفها اليُسرى.

- اسمه حميد يا أمي، ما أظنكِ قد نسيتِ اسمه بهذه السرعة!

امتعض وجه أمها أكثر وأشاحت بيدها غير مكترثةٍ لتعليق فريـال، التي كانت تتجه لحجرتها قبل أن تستدير لتردف في انفعالٍ بادٍ:

- أنتِ تدفعينني للجنون، تتعجَّلين زواجي منه وفي الوقت ذاته تنعتينه بالعربي والغازي والقاتل.. ماذا تريدين تحديدًا؟

التفتت أمها ببساطة وهي تقول بلهجةٍ آمرة:

- المهم أن يتزوجك ونرحل لفرنسا.

ثم حدثت نفسها: "هم من أوصلونا لهذا الخراب، على الأقل يساعدوننا على الهروب منه".

ألقت فريـال بجسدها على المقعد المواجه لمكتبها بالحجرة. أمالت رأسها للخلف وأغمضت عينيها العسليتين. حِملٌ ثقيلٌ تلقيه أمُّها على كتفيها. فهي المسئولة عن سفرهما لفرنسا ليهربا من الجزائر المشتعلة، والطريق إلى ذلك كان التفوق الدراسي قديمًا، إلى أن نضجت وبانت جمالها البربري واضحًا بوجهها المثلث وقوامها الفارع الفاتن. فحوَّلت كنزة خُطَّة النجاة من التفوق للزواج، ليس أي زواج يؤدي للسفر بل هو التصاهر مع من تراه أمها سبب تعاسة البلاد.

تُرى كيف ستضع أمها يدها في يد چنرال بِنْ طالب والد حميد من دون أن تُحمِّله ذنب مولود معمري ([2]) وقمع الثورة الأمازيغية، إلى آخر مَرثيَّات القبائل ([3]) كلها؟

خمسة عشر عامًا مرت على أحداث تيزي ووزو، لم تشهدها أمها فقد كانت هنا بالعاصمة. لم يُصب أيضًا أحد من معارفها لكنها ترى في كل عسكري ظالمًا لبني جلدتها، فما بال بِنْ طالب أحد كبار قادة الجيش؟

تشعر كمريضٍ فصام واعٍ بمرضه ومستسلم له، لا يطلب شفاءً مستحيلًا. تتحدث العربية صباحًا والأمَّازيغيَّة مساءً ولا يُسمح لها بالخلط بينهما. تشجع مولودية بلوزداد مع حميد وتشجع نادي شبيبة القبائل في المنزل؛ لإرضاء أمها التي لا تفقه

في الكرة شيئًا ولا تتابعها لكنها فرضت على نفسها وعلى ابنتها مؤازرة كل أمازيغي مُضطَهد، فكلهم يعانون ظلمًا ما حتى وإن كانوا مشاهير أغنياء كلاعبي نواديهم والمنتخب.

أما هي فترى الجزائر جائرة على الجميع، شديدة الظلم لا تعدل إلا في توزيع الاضطهاد بالتساوي على كل المواطنين. شخصٌ ما يستيقظ يوميًّا فينظر للبلاد من أعلى ويبدأ في تعكير صفو الجميع من دون تفرقة. بدا لها أن هذا الشخص لا يكتفي بإتعاسهم فقط بل إنه يتلذذ بهذا العمل، كالحلواني الذي يوزع شرابه السُّكري على صينية مقروط اللوز اللذيذة، فلا يهدأ باله حتى يتأكد أن كل قطعة قد نالت حصتها من العسل، فينظر لعمله مبتسمًا راضيًا قبل أن يتركه وينصرف لما وراءه.

أجبرت رأسها على التوقف عن التفكير في حالها، فلا هو بالجديد ولا التفكير فيه سيفيد.

قامت لتبدل ملابسها القصيرة الكاشفة. لا تملك مواجهة الإسلاميين إلا بإحياء ما يسمونه منكرًا.

اتصلت بفاطيما لتراجع معها ما وجب عليها مذاكرته، فهي تقضي نصف يومها مع حميد خارج المحاضرات.

لم تستوعب في البداية ما أخبرتها به فاطيما من هروب والدتها باهية مع أختها زهرة واتصالها من بلچيكا وثورة أبيها. لم تكن صديقتها في حالة تسمح بالشرح، فأغلقت الخط بعد أن وعدتها بالزيارة صباح الغد؛ فليذهب يومٌ دراسيٌّ آخر إلى الجحيم. حميد سينجح، لن يرسب ابن الچنرال، وهو وحده سفينة نوح، ليست شهادتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

غادر صالح المنزل صباحًا إلى عمله من دون أن يتحدث مع أحد. سيذهب إلى محلِّه سيرًا على الأقدام ليشرب قهوةً في الطريق بثمن المواصلات كما اعتاد. يقترب من القهوجي مخترقًا المنتظرين، يمده بدیناراته الخمسة من دون أن ينطق بكلمة، شأنه شأن الزبائن الدائمين لهذا المقهى الذي عشقه منذ زمن، ربما بسبب موسيقى المالوف القْسَنْطِيني ([4]) التي تصدح بداخله بلا انقطاع؛ فتُذكِّره بأيام طفولته التي قضاها في الشرق. يأخذ كوبه الصغير ليقف به وحيدًا على الرصيف مدخنًا سيجارته مطلقًا عينيه للفراغ. الحاج محمد الطاهر الفرقاني يغني "يا باهي الجمال"، لكن أذنيه أبَتَا أن تسمعا مَلِك هذا اللون من الطرب الذي يعزف الكمان وهو يُنشِد.

متحاملًا على نفسه يكمل مسيرته إلى حانوته لا تسعفه قدماه، لم يُضعفه العمر فهو لم يبلغ الستين بعد، بل أوهنته مداومة الشراب فقصرت خطوته وأحنت رأسه مع كتفيه. لا ينظر لأحد، ربما وَشَتْ عيناه بما حدث، فلتذهب باهية حيث شاءت بماله، لكنها سرقت رجولته التي لن يُفلح في استردادها أبدًا.

اقترب من واجهة حانوته القديم، مثل المكان من الداخل، ما زال يحتفظ بطابعه الفرنسي. الأبواب من الخشب البُنِّي الأدْكَن تتخللها شبابيك الزجاج الأبيض المكتوب عليها بالفرنسية فقط "الحياكة الراقية عند صالح".

اعتاد يوميًّا أن يبدأ صباحه بنصف ساعة يقضيها على كرسيِّه أمام الحانوت متفرجًا على المارَّة، قبل أن يدخل ليفتح كراسته ويمسك مقصَّه ليبدأ عمله وقت ما كان عنده زبائن. اليوم آثر ألَّا يجلس بالخارج، يخشى مواجهة الناس، يشعر كأنهم جميعًا يعرفون ما حدث بالأمس، دلف إلى الداخل في سِرِّية وصمت حامدًا ربه أن لم يَرَه أحد.

يرتاح أنفه لهذا المكان أكثر من البيت والحانة، مشغل الخياط يكتسب رائحته مع الزمن لتصبح عبقًا مختلطًا من رائحة الصوف وزيت الماكينة ودخان السجائر مع قليلٍ من الغبار. غير أن مُكوِّنًا آخر أسهم في إكساب حانوته أريجه الخاص، فكل جميلة زارته لتطلب زيًّا خاصًّا بها تركت أثرًا من عطرها ليعلق بالهواء. وحده يشم ماضي محلِّه ويتذكر وقتًا خلا ما كان يخلو مشغله من الزبائن.

أدار مقعده ليعطي ظهره للباب، أراح يُسراه على منضدة القص المكسوَّة بجوخ أخضر، سحب سيجارة "ريم" من جيب معطفه الداخلي، أشعلها وأخذ نَفَسًا عميقًا. سمح لعضلات رقبته بالاستسلام فتركت رأسه يسقط ناظرًا للأسفل. أخذ يسترجع منعطفات حياته التي ما إن تمنى أن ترحم شيبته وتستقر حتى فاجأته بضربة باهية الملعونة.

أرخى جفنيه ليرى طفولته في ولاية سطيف، تُوفِّي والده وهو في الحادية عشرة، بعد عامين من إتمامه حفظ القرآن الكريم. باعت أمه مشغل أبيه لترزي فرنسي

اسمه "چون - كلود"، الذي حوَّل المشغل من حياكة الملابس النسائية التقليدية إلى "الحياكة الراقية عند چون - كلود". مَنْ ستحتاج إلى جبة فر□اني ([5]) سنة 1951؟

أرسلته أمه للعمل لدى چون - كلود الذي علمه صنعته كما علمه شرب النبيذ. كره چون - كلود لصفاتٍ ما لبث أن اكتسبها منه بحكم العشرة. يحتار عندما يذكره: أيشكر من علَّمه كيف يجني مالًا أم يلعن من أرشده كيف يُهلك ما اكتسب لآخر دينار؟

غادر چون - كلود الجزائر بعد الاستقلال ونزح صالح من بعده إلى العاصمة. اشترى بميراثه من أمه هذا الحانوت، ابتسمت له الدنيا في السبعينيات والثمانينيات، صار قِبلة سيدات المجتمع الراقيات، أصبح بعمله وإتقانه أشهر خياط بالعاصمة بلا منازع. رُزق بابنتيه فاطيما ولمياء، كان يقضي سهراته في حانات الأوراسي وسان جورج مع صفوة المجتمع الجزائري، قبل أن تنتشر الملابس الجاهزة وقبل أن ترتدي النساء أردية فَضْفاضَة وغطاءً للرأس تفتقرُ للإبداع.

استهل التسعينيات بانتخابه للجبهة الإسلامية للإنقاذ:

- عسى اللـه أن يغفر لنا ما تقدم من ذنبنا، لكن أبَى الجيش أن يتركنا نختار، واشتعلت الدولة، ثم رُزقت بزهرة، وقل رزقي حتى كاد أن ينقطع.

رفع حاجبيه مادًّا رأسه للأمام، حدَّث نفسه بصوتٍ مسموعٍ قائلًا:

- ولا زلنا أحياء!

سمع صوتًا يأتي من الخلف:

- سي صالح! أنت بالداخل؟

التفت نحو الباب، وجد سي الطاهر صانع النظارات الطبية وصاحب الحانوت المجاور بقامته القصيرة ورأسه الأصلع وحواجبه الكثيفة.

- سي الطاهر! تفضل.

تقدم الطاهر نحوه شارحًا:

- وجدتُ حانوتك مفتوحًا، ولم أرَك بالخارج كعادتك، أردتُ الاطمئنان عليك.

تحامل صالح على نفسه ليقف، بالأمس فقط زاد عمره عشر سنوات:

- أشعر بوعكةٍ خفيفة، هذا كل ما في الأمر.

سحب سي الطاهر جريدة الخبر من تحت إبطه وقدمها نحو صالح:

- ومَن منا على ما يُرام سي صالح في هذه البلاد؟ أقرأتَ ما حدث في البْليدة؟

لم ينتظر رده قبل أن يستكمل:

- استيقظت البليدة على جثة امرأة معلقة في عمود النور من رقبتها، وقد بُقر بطنها وتدلَّت منها أحشاؤها. هاك، سأدعِ لكَ الجريدة لتقرأ بنفسك التفاصيل.

أقرب جيرانه لقلبه لكنه للأسف ثرْثار واليوم خاصة لا يقوى صالح على الحديث. أكمل الطاهر حديثه غير عابئ بمحدثه الشارد الذي لا يُنصت إليه:

- لا زبائن اليوم لديَّ لكني أستميحك عذرًا، فأنا في انتظار شحنة نظارات ستأتيني هذا الشهر؛ ولذا عليَّ أن أعيد ترتيب الموجود وتسعيره. مُرَّ عليَّ بعد الظهيرة يا صالح لنشرب شايًا معًا.. سأنتظرك.

عاد سي الطاهر إلى حانوته، وعاد صالح إلى شروده. "أي بلد هذا الذي يُقتل فيه الناس كالفئران فلا تفعل الدولة شيئًا؟.. ليت ابنتيه أفلتتا من هذه الغابة مع زهرة إلى بلچيكا، وليتكِ أنتِ من بُقر بطنها يا باهية جزاء فعلتك القذرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

قامت فاطيما لتفتح الباب، عيناها حمراوان متورمتان من البكاء. لم تنَمْ، مَن يمكنه النوم في ظرف كهذا؟.. ألْفَتْ جارتهم لدى الباب تحمل صينية وتهمُّ بالدخول من دون استئذان.

- عمتي ناصيرة!

- كيف حالكم يابْنَتي؟

تقدمت ناصيرة تجرُّ خلفها ردفين ثقيلين حتى وضعت حملها على منضدة غرفة الاستقبال. أزاحت الغطاء الأبيض القماش؛ فكشفت عن صحن بغرير وآخر محاجب ([6]) وزيتون وعسل، جبن بلدي وبيض مسلوق وجَزَر مقطع.

وضحت الصورة، لقد انتشر الخبر. زوج ناصيرة كان مع أبيها بالأمس، جيران منذ السبعينيات. قامت مشكورة بالحلول محلّ باهية، أعدت الإفطار وأحضرته لتُجالسهما. لربما أتت عمتي ثريا بطعام الغداء وعمتي داهية بالعشاء حيث أننا أصبحنا حديث الشارع. أترين ما فعلتِ بنا يا أمي؟

- أحضري لمياء لنفطر. لم آكُلْ شيئًا وأردت أن أفطر معكما.

حياء ناصيرة يمنعها من الإفصاح عن سببٍ مجيئها، أتت لتطمئن على الفتيات بعد هروب أمهن وبداخلها سؤال كيف يمكن لأمٍّ أن تفعل هذا؟.. دخلت فاطيما الغرفة بقلب ثقيل يكاد يسقط تحت قدميها لتنادي أختها عندما سمعت جرس الباب يدق من جديد، أتت فريـال.

فتحت ناصيرة الستائر لتنير الصالة وجلسن ليأكلن، حاولت فريـال وناصيرة فتح أحاديث مع البنتين فلم يُفلحن. انتهت فريـال من الطعام واتجهت نحو شرفة المطبخ الواسعة. تعرف المكان كبيتها ولا حاجة لها في الاستئذان. افترشت فراء الكبش الملقى على الأرض وانتظرت فاطيما التي لم تبطئ حتى لحقت بها. جلست بجوارها من دون أن تنطق. أخرجت فريـال سيجارة من علبتها الفرنسية "جولواز"، أشعلتها ومدت بها يدها لفاطيما التي تلقّتها من دون نطق بدورها. أشعلت لنفسها أخرى وسحبت نَفَسًا قبل أن تبدأ:

- متى ستذهبين للجامعة؟

لم يوقظها السؤال من شرودها، ودَّت لو أنها تذهب إلى الجامعة سيرًا فتمزق ملصقات جبهة الإنقاذ عن الحجاب، وما تبقّى من صور لعباس مدني وعلي بالحاج على طول الطريق وداخل الجامعة. بل ودت لو أن تذهب إليهما فتقتلهما بدمٍ بارد، فهُمْ من دفع باهية للهروب.

كان كل شيء جميلًا قبل أمس، بالأحرى قبل تاريخ نجاحهم في الانتخابات التي حوَّلت البلاد إلى حمَّام دم لا يعرف كائنًا من كان متى سينتهي وكيف. بيد أن المسافة من بيتها ببلكور لباب الزوَّار تفُتُّ في عضد القوي وهي من خارت قواها

دفعة واحدة بخبر الأمس. العزم صادق والكراهية في أوجها، غير أن القدرة على التنفيذ تحت الصفر.

احتضنتها فريـال من عنقها لتجذب رأسها نحوها وكررت السؤال ثانية:

- متى ستعودين للجامعة يا فاطيما؟

أخذت نفَسًا خاطفًا لتسحب بلَل أنفها، قبل أن تجيب بصوتٍ ضعيفٍ وذهنٍ شارد:

- لا أعرف، ليس بي رغبة حاليًّا.

- ستتحسنين قبل نهاية الأسبوع.

أجابتها فريـال في إصرار واضح:

- لا أظن.

وانسلَّت دمعة ساخنة على وجنتها الخمرية..

استدارت فريـال لتصبح في مواجهتها. نظرت إلى فاطيما في عينيها ثم قالت:

- أنا لا أجيد المواساة، لكني أعرف تمامًا ما تمرِّين به. بل لقد خبرت ما هو أسوأ بكثير.

لم تنجح تمامًا في جذب انتباه صديقتها فاستمرت:

- لم يمُتْ أبي كما يموت الناس، لقد تخلَّى عنا وانتحر.

- لم أكن أعرف، أنا آسفة. لماذا..

قاطعتها قبل أن تكمل:

- لا تهمني كثيرًا أسبابه، ما يعنيني أنه قد تركني وأنا بنت سبع سنين. هكذا قرر أن يقطع علاقته بنا وبالعالم كله. كنت طفلة، ولم تكن أمي تعمل ولم يشفع لنا هذا عنده. لم يعُد يشعر بالأمان بعد الاستقلال، لم يسافر لفرنسا مع الحركي ([7]) فهو لم يكن خائنًا مثلهم. إلا أن شعورًا شاذًّا بالخوف استولى عليه، حتى أتى ذاك اليوم الأسود الذي قرر فيه أن يقف بمنتصف جسر حيدرة ويلقي بنفسه ليلقَى حتفه بين الجبلين. فقط آثر أن ينجو بنفسه ففعل. بعد حادثته هو وآخرين اختاروا هذا المكان ليضعوا لحياتهم حدًّا فيه، رفعت الدولة السور حتى ينتحر القانطون في مكانٍ آخر.

تهدَّج صوت فريـال وأفلتت من عينيها دمعتان. احتضنتها فاطيما بيُمناها محافظةً على سيجارتها في يُسراها وشرودها في عينيها.

استمرت فريـال في حديثها:

- صدقيني، إن ما فعلته أمك أفضل كثيرًا مما فعل أبي، فهي تسعى لرؤيتك في مكانٍ أفضل بعكسه هو الذي فضَّل ألَّا يراني ثانية.

أخذت نفَسًا عميقًا من سيجارتها ثم أضافت:

- أيضًا من بقي معك ولم يهرب جدير بأن تراجعي علاقتك به، فالبقاء على من بقي أولى من البكاء على مَن فلّ.

كانت تشير إلى أبيها صالح، فهي تعرف كم تحنق عليه من دون أن تعرف سببًا لذلك، ولربما كان يستحق فرصة أخرى.

- كيف أواجه الزملاء بعد أن يعرفوا سري؟

- الجزائر كلها تتحدث اليوم عن حادثة البليدة، امرأة مشنوقة على عمود النور مَثَّل بجثتها الإرهابيون فتركوا أحشاءها تتدلى من بطنها المفتوح. قبل الظهيرة سينسون، وغدًا يستيقظون على جريمةٍ أبشع. في رأيكِ، كم سيبقى خبر سفر أمك حديث الساعة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

أدخل محسن حقيبته لغرفة نومه ولم يفتحها. حقيبة صغيرة هذه المرة. حتى الحقائب تُذكِّره أنه عاد وحيدًا.

وضع الإبريق الإيطالي على النار بعد أن ملأ مصفاته بالبُنّ، لم يكن يرغب في قهوة لكنه احتاج رفيقًا يشاركه قراءة الخطاب. اصطحب فنجانه والظرف الأبيض إلى صالة المنزل. مكتبة كبيرة عامرة تشغل الحائط المصمت يتوسطها تليفزيون. يقابل المكتبة أريكة طويلة تعلوها ساعة حائط تشير إلى ما بعد الظهيرة بقليل. فتح الستارة لينير المكان، ألقى نظرةً على الشارع الصغير من شُبَّاكه المغطى بالحديد. لم يتغير شيء بالخارج، وحده الداخل أصبح فارغًا كئيبًا.

فتح الظرف بسكينٍ صغيرة، الخطاب المقتضب لا يحوي سوى جملٍ قصيرة:

"الأشياء في الحقيقة عكس ما تبدو عليه. قوات مكافحة الإرهاب تقوِّيه ولا تكافحه. تعمل بثلاث طرق:

* لا تتدخل عندما يشتبك أحدٌ مع قوات الأمن، بل تنتظره حتى ينتهي من مهمته فيبدو أقوى من حقيقته.

* تدعمه ماديًّا وتُسلِّحه.

* تمارس الإرهاب باسمه عن طريق أفراد مُلْتحِين في صفوفها.

هم على الأرجح غير متعاونين بالاتفاق، فقط تتلاقى أفعالهم على اختلاف أهدافهم.

وحده الإعلام يستطيع أن يُريك عكس ذلك. رأى الجميع على الهواء اغتيال السادات، قتله أفراد من الجيش ومع ذلك لا يتذكَّر أحد أنهم ضباط، كل ما يعرفونه أنهم إسلاميون.

مكافحة الإرهاب قد تكون أخطر من الإرهاب، والإعلام أخطر منهما ولا يُنبئك مثل خبير".

انتهى الخطاب، من دون توقيع ولا مقدمة تدل على كاتبه. الظرف أيضًا أبيض لا مُرسِل ولا مُرسَل إليه.

كفَّ عن التململ في جلسته فزاد صمت المنزل.

"ما هذه المصيبة؟ أي نكبة تسقط على رأسي الآن؟ رُحماك يا ربي، لم يعُد بروحي مكان لضربة أخرى. ربما أتاني بالخطأ ولم أكن المعنيَّ بتسلُّمه؟ لكنه تحدث عن السادات، غالبًا الخطاب لي أنا. ماذا يريدني أن أفعل؟"..

أعاد قراءة الخطاب وتفحَّص الظرف ربما استدل على المُرسِل، لا شيء مطلقًا. فكر قليلًا، أيحرقه؟ على أيَّة حال هو لا يقول جديدًا، فبعض الناس يتهمون الجيش بالتواطؤ. قليلون هم حقًّا لكن الفكرة ليست بالجديدة. فمنذ الانتخابات البرلمانية لعام

1991 التي فازت فيها الجبهة الإسلامية للإنقاذ باكتساح، لم يعجب الجيش الجزائري الذي تدخل لإلغاء الانتخابات. كتبت بعض الصحف تحت عنوان: "مَن أفسد عرس الديمقراطية بالجزائر؟". كان عرسًا ديمقراطيًّا بحق، أول انتخابات نزيهة تحدث بالبلاد وكان إلغاؤها كدق جرس البدء في حلبة الملاكمة؛ يقف الخَصْمان كلٌّ في ركنه متوعدًا غريمه، ينتظر أول حركة منه، يبدأ بمناوشته ثم ينقضُّ عليه مشتبكًا.

هكذا بدأت الجولة الأولى ثم توالت بعدها الجولات واحدة تلو الأخرى إلى يومنا هذا. لم يكسب أحد كما لم يخسر أحد. حَجرًا رَحًى يدوران فيعركان بينهما رجالًا ونساءً، شيوخًا ورُضَّعًا واقتصاد وتجارة تبور.

يقف الجيش خلف جبهة التحرير الوطني أو الحزب الحاكم، عندما حدث هذا لم يندهش أحد، لم يخرج علينا مَن يعارض تحيُّز چنرالاتنا لحزب ما مستشهدًا بجيش فرنسا المحايد الذي لا يتحيز لفريق. فعند الشدائد يموت التنظير وتسود أخلاق القطيع.

في بداية الأمر اصطفَّ جزء من الشعب خلف الجبهة الإسلامية متمثلة في قطبيها: عباس مدني وعلي بالحاج بدافع نصرة الديمقراطية حينًا ولنصرة دين الله أحيانًا. ثم بدأ عقد الملتفين حولهم في الانفراط حبَّةً بعد حبَّة، لا سيَّما وقد ظهر على ساحتهم أسماء مخيفة كعنتر الزوابري ومدني مرزاق وآخرين. ثم توالت المذابح التي أسقطت جحافل من المدنيين والعسكريين بلا رحمة. حمل الموت منْجلَته وشرع يحصد من الرؤوس كأنما تفرَّغ لهذا البلد الحزين.

سرعان ما انقلب المتعاطفون مع الجبهة إلى كارهين لها وكأنما كتب الله على الجزائريين الاستقطاب؛ مُتفَرْنِسين مع مُسْتعربين ثم عرب وبربر ([8]) واليوم مناصري جبهة الإنقاذ ومناهضيها. بيدَ أن قلَّة قلَيلة كانت تحافظ على برودة رأسها وتفتش عن المستفيد، كانت لا تُبرئ الدولة تمامًا من هذا الإرهاب لا سيَّما وهي الرابح الوحيد من ورائه.

الفكرة موجودة إذن، ليست ذات شعبية واسعة ولكنها هناك. فقط فكرة تبادل تلك المعلومة في خطاب مجهول المصدر هي ما تخيفه حقًّا.

أعاده في ظرفه وتفحَّص صفوف الكتب، اختار كتابًا مُملًّا وخبَّأه بين صفحاته. ثم اتجه إلى رفٍّ آخر يتصفَّحه حتى جذب كتابًا صغيرًا تعلو غلافه صورة رجلٍ مُلتحٍ. عاد إلى كرسيِّه ليعيد قراءته. أفرغ فنجان قهوته الباردة دفعة واحدة في فمه، ثم ابتلعها وهو يقرأ أول صفحة:

(مُذكِّرات عبود الزُّمُر...)

(كيف اغتلنا السادات؟...).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

نسيم بروكسل أبرَد من هواء البحر في الجزائر. اتَّبعت التعليمات المكتوبة في الورقة بدقة. خرجَتْ من المطار، أعطت سائق التاكسي العنوان وجلست تشاهد جمال المدينة. المباني النظيفة، الأزهار في الشرفات، الشوارع الواسعة، الجلوس على المقاهي. تحتضن زهرة بقلقٍ لا تستطيع إخفاءه، هربتا حقًّا من الجحيم لكن أمامهما مغامرة لا تعرف عنها شيئًا.

نقلة كبيرة بين فجر اليوم وعصره، لا ينُغِّصها سوى فراق لمياء وفاطيما، اللهم قرِّب لقاءنا. بدأت الشوارع تضيق وتظهر اللغة العربية على لافتات المحالّ. قاعة الأفراح "ريما"، حلَّاقة النساء "حليمة". كما بدأت الملامح العربية في الظهور. لقد سبقتنا البلاد إلى مهجرنا، بلا ملتحين ولا إسلاميين، الحمد لله. توقف التاكسي على ناصية شارع وأشار بإصبعه للداخل، شرح بلهجته المغربية كيف تصل للعنوان سيرًا لأن السيارات لا تستطيع الدخول.

بالغَتْ نعيمة في افتعال حرارة العناق، حاولت إخفاء توترها فلم تنجح، تعلم جيدًا أن زوجها غير راضٍ عن استقبالهما في المنزل. امرأة هاربة وطفلة قد تحملان معهما من المشاكل ما لا طاقة لهم به، فضلًا عن توفير مكان لهما والإنفاق عليهما.

قادتهما إلى غرفة صغيرة ذات سرير مفرد سقفها مائل يكاد يلمس الأرض عند ضلعها المواجه للباب.

- تعرفين أختي، الأسقف هنا مائلة ونحن في الطابق الأخير.

تكلَّفت باهية الامتنان، وأضافت:

- لا تقلقي يا نعيمة، لن نبقى طويلًا هنا. سأجد سكنًا لنا حتى أُحضر البنات. لن أنسى لك هذا الجميل أبدًا (أردفت بصدق بالغ).

تركتهما لترتاحا من السفر ونزلت لتلحق بزوجها حسن في المطعم.

- سنلحق بك.

أكَّدت باهية على أختها قبل أن يبتلعها ظلام السُّلَّم.

ضمت زهرة إلى صدرها في محاولةٍ لتهدئة بكائها الذي لم ينقطع.

- لا تخافي، نحن هنا بأمان. هذه خالتك نعيمة، كانت تأتي إلى الجزائر كل عام قبل اشتداد الأزمة. ستتعلمين هنا وسنسكن شقة كبيرة بمفردنا قريبًا. انظري إليَّ ولا تبكي، لقد هربنا من النار ألا تفهمين؟

- ومتى يهرب أبي وفاطي ولامو؟

أجابت والدموع تغرق وجهها.

لا تخطط حقًا لهروب صالح؛ فهو أحد أسباب فرارها من البلد. أما البنتان فسيرتهما تمزقها من الداخل كلما تذكرت أنها تركتهما وراءها. كان من المستحيل اصطحابهما، لا النقود تكفي ولا بيت نعيمة سيستقبلهن كلهن ولم يكُنْ ممكنًا تدبير هروبهنَّ جميعًا من دون أن يفطن صالح لخطتها فيُفسدها. هكذا أسلَم، تأخذ زهرة ثم تجني من الأموال ما يكفي لإحضارهما.

- قريبًا.. قريبًا جدًّا سنأتي بهم جميعًا إلى هنا، المهم أن نبدأ العمل فورًا.

غالَبت باهية قلقها كي تتماسك ابنتها التي لم تنقطع دموعها في التوِّ. بالأحرى لم تنقطع لأيامٍ طويلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

تخرجتُ في الكلية العسكرية بالبليدة منذ ثمانية أعوام. كلمات أبي المستمرة عن المقاومة وحرب التحرير، كانت تنقش في قلبي حب البطولة. أسماء كالعربي بالمهيدي وديدوش مراد والأمير عبد القادر وعلى لابوانت، وآخرين، كانت تُصيبني بنشوةٍ ورجاء، لعلِّي أكبر وألحق بركب الأبطال. بعكس أقراني الذين كانوا يحلمون بفرنسا ومستقبل باهر هناك كنت أحلم أنا باقتفاء آثار مناهضيهم، كنت أرى مستقبلي من خلال قمع كبير مغلق ينتهي بثقب ضيق، أجدني فيه ضابطًا بالجيش، فهكذا - وهكذا فقط - نعيش للوطن.

بدأتُ عملي كضابط مظلات ثم تدرجتُ وظيفيًّا حتى وصلتُ لمنصبي هذا في قوات مكافحة الإرهاب. كنت دائمًا منهمكًا في إطاعة الأوامر وتنفيذها بحذافيرها. كوني عسكريًّا نموذجيًّا هو ما أوصلني لمنصبي هذا. فاتني الهدف عندما استغرقتني التفاصيل. نادرًا ما كنت أتوقف لألتقط أنفاسي، وعندئذٍ كان يراودني تساؤل: "أعلم أني أجري، لكن هل أنا على طريقي لما أبغي؟ أعني هل أجري في الطريق الصحيح؟".. إلا أنني كنت أعاود الجري لاهثًا قبل أن أفكر في الإجابة.

لم تكن هذه الفكرة شغلي الشاغل حتى وقت قريب، وإن اقتحمني التساؤل على فتراتٍ متباعدة. استوقفتني بعض الظواهر التي تتنافى مع رسالة حُمَاة الوطن، لكن كانت الأحداث المتسارعة تحتويني كليًّا فأغرق ثانية في التفاصيل.

"الناسُ نِيامٌ فإذا ما مَاتُوا انْتَبُهوا" (حديث شريف).

ليس وحده الموت من ينبهك، ربما انتبهت أيضًا إذا اقترب منك الموت حد التلامس فلا تعُد كما كنت أبدًا. لم يحدث هذا لي فالقتل مهنتي؛ أي أن حضور مَلَك الموت من حولي لم يَعُد حَدَثًا جَلَلًا.

من باعَد بين جفنيَّ قسرًا وأجبرني على التدبُّر هو ذلك الريفي الذي تحول بعد مذبحة بن طلحة. انتبه هذا القروي فانتبهت على إثره.. شاهدته صبيحة المذبحة، كان من قلائل الناجين لكنه لم يعد ذلك الأشعث الكسير الذي كان يأتينا أسبوعيًّا ليسأل:

- متى تسلحوننا؟

فنهمله بعجرفة أو نسخر من بساطته. لم نُجِبْه يومًا بأكثر من:

- لم تأتِ الموافقة بعد.

فيسحب درَّاجته ليعود من حيث أتى. اعتدتُه رجلًا يشبه ماء الصنبور لا لون له ولا طعم ولا رائحة. لا تستشعره إذا حضر ولا تفتقده إذا غاب. فما باله اليوم أصبح كالوحش؟

ذات الصباح وبعد أن باتت قريته برُمَّتها في حمَّام دم طال لخمس ساعات وراح ضحيته أكثر من أربعمائة شهيد، صرخ في وجوهنا بقوة لم نَعْتَدها منه:

- لِمَ أتيتم؟ ولِمَ الآن؟ عودوا أدراجكم فأنتم لم تكونوا أبدًا معنا.

- لقد أتت الموافقة بتسليحكم.

- خذ سلاحك واغرُب عن هذه القرية للأبد، فلَمْ يعُد هناك مَن يحمل السلاح.

لم نُطِع أوامره بالطبع؛ فليس هو الآمر الناهي لنا. لكن كلماته وتحوله في غمضة عين من قروي بسيط لوحش يجرؤ على الصراخ في وجه جنود مسلحين، قد ترك في نفسي عميق الأثر.

كان هذا منذ أسابيع، عدنا أدراجنا لثكنتنا التي تبعد عن القرية قُرابَة ثلاث كيلومترات أو يزيد. سرح بصري في الطريق، كان يقطعه كل جمعة بعد الصلاة على دراجته نائبًا عن بني قريته. يدخل علينا بجلَّابته البُنية القصيرة الخشنة، لِحْيتُه متناثرة، يكسو مظهرَه الرَّثّ استكانةٌ بدت في صوته الخفيض ونظراته الكسيرة. يسمع جوابنا المعتاد ثم ينصرف متمتمًا بكلمات ممضوغة، مفادُها أن الوضع غير آمن وقريتهم نائية وأننا قد سلّحنا قرى أقل من بن طلحة خطرًا. فلا يعير كلماته أحد انتباهًا ولا هو يُكثر جدالنا.

لم أنَمْ ليلتها، وكيف أغمض وقد رأيت ما لفت رأسي عنوةً لما أتحاشاه؟ حاولوا الاستنجاد بنا مع بداية الضرب. طلبنا الإذن بالتدخل، فلم يأتنا حتى الصباح. عندما ذهبنا إليهم لم نَرَ إلا الجثث وبعض الناجين.

أنهى الإرهابيون عملهم على أتمِّ وجهٍ من دون أن يُنغِّص صفوهم أحد. بالأحرى تركناهم طوعًا جرز السباع وكل نَسْرٍ قَشْعَم؛ فنحن لم نسلحهم عندما كانوا في خطر، ولم ندافع عنهم ساعة المذبحة، ليس هكذا يكون الدفاع عن الوطن.

أنا أيضًا انتبهت ذلك اليوم، كنت قبله مُغيَّبًا رغم إرادتي، أو بالأحرى اخترت أن أظل مغيبًا حتى لا أفقد إيماني بالوطن. غير أن الضربات توالت على رأسي عازمةً على أن أدرك دوري في آلة القتل.

"قلت لكم مرارًا

إن الطوابير التي تمر..

في استعراض عيد الفطر والجلاء

فتهتف النساء في النوافذ انبهارًا

لا تصنع انتصارًا

إن المدافع التي تصطفُّ على الحدود، في الصحاري

لا تطلق النيران.. إلا حين تستدير للوراء.

إن الرصاصة التي ندفع فيها.. ثمن الكسرة والدواء:

لا تقتل الأعداء

لكنها تقتلنا.. إذا رفعنا صوتنا جهارًا

تقتلنا، وتقتل الصغار!".

درسنا أمل دنقل في المدرسة ولم ندرس له هذه القصيدة. هو قائل: "اكتب كَيْلَا تكون وحيدًا". اليوم وبعد مذبحة بن طلحة، قررت أن أكتب كي أنزف ما في صدري من سواد حبرًا على الورق.

يضيق صدري بما علمت ويمنعني عملي من الثرثرة. عندما نترك دوريةً ما فريسةً للإرهاب لا يضعنا هذا في مصافِّ أصحاب القرار، بالعكس. فمن ضحى بهم الكبار اليوم كانوا بالأمس مثلنا يشاهدون مجموعة أخرى تُلتَهم ولا يقدرون على المساعدة. نحن اليوم أحياء لا بسبب قوتنا أو تنظيمنا، بل لأن مخرج المشهد لم يخلع علينا دور الضحية بعد. خفتُ أن أموت غدًا أو بعدَ غدٍ ولا يعرف أحد حقيقة ما يجري في البلاد. بدأت في كتابة خطابات قصيرة مجهولة المصدر، أستغل العطلات لأضعها في صندوق بريد الأستاذ محسن المصري، الذي درَّس لنا العربية في المدرسة الثانوية، وهو الذي علمنا قصيدة أمل دنقل تلك وكانت خارج المنهج. أذكر كم كان مثقفًا كما أني أثق في حياديته، فلا أقارب له في الدولة ولا في الجبهة. وإن مُتُّ قبل أن أجد طريقة لتسجيل اعترافاتي كاملة، أكون قد تركتها معه وسيفعل بها ما يراه مناسبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

"ما أجمل هدوء هذا المكان"، حدَّثَتْ فريال نفسها بعد زفرة طويلة. تطوعت بهتك سرِّ أبيها المنتحر لمواساة فاطيما، لكن من يواسيها هي بعد أن فتحت جرحها بيدها؟ لا أمها تصلح ولا حميد، فقد اتفق الاثنان على استغلال جسدها من دون الالتفات لقلبها. الأولى تكاد تعرضها للزواج لكل من لاحت له سَفْرة في الأفق، والثاني يعبث به باسم الحب ونادرًا ما يبذل جَهْدًا في افتعال دور العاشق.

تختبئ من الجميع في سيدة إفريقيا، الكنيسة الوحيدة في البلد التي لم تحولها الدولة إلى مسجد. يرى حميد أنها بقيت ككنيسة بسبب تصميمها المُعقَّد وقبابها المتعددة، كما أنها أيضًا صغيرة من الداخل، بعكس مثلًا كنيسة "□يكتور إيجو" بشارع ديدوش التي أصبحت مسجدًا بفضل تكوينها المستطيل المشابه للمساجد.

تُضحكها سذاجته المفرطة، لم تتحول لمسجد لأنها فوق جبل وتحتاج لتليفريك للصعود إليها؛ لذلك لا تصلح لاستقبال المئات في صلاة الجمعة. هكذا تعتقد، لكنها لن تجادله كيلا تُغضبه. تعرف بذكائها الأنثوي كيف تحتوي حماقته الشديدة.

هنا يتوقف الزمان، فلا تسمع صوتًا ولا الوقت يمرّ. كيف تفعل هذا أيها المبنى البيزنطي الشاهق الرابض فوق الجبل؟ تعشق الوقوف خلف سوره الحجري لتنظر للبحر الممتد أمام عينيها. ترى الكنيسة كرأس عروس جميلة فستانها الجبل المُرصَّع بمنازلٍ منطقة بولوغين الجبلية النابتة بين الحشائش والأشجار. تقف تلك العروس شامخةً أمام البحر تطاول زرقته السماوية بحَمارها الدموي وقبابها المعدنية اللامعة. تهون كل مشاكلها عندما تتضاءل هي نفسها بجانب عظمة هذا المشهد.

تأتي مبكرةً قبل أن تفتح الكاتدرائية أبوابها، لا بأس بالجلوس على المقاعد الخشبية المحيطة بالساحة الخارجية والذوبان في تلك اللوحة حتى الساعة الحادية عشرة، حيث تفتح الأبواب. تدخل متمهلةً دومًا، تتأمل اللوحات الرخامية على جانبَي الممر. المئات من اللوحات، أسماء وتواريخ، الكل يشكر السيدة العذراء، البعض يذكر السبب والبعض الآخر يكتفي بالشكر المبهم. حتى طقوس البَخُور والشعائر التي توقفت منذ عقود، لا زالت تخبئ رائحتها في مكانٍ خفيٍّ لتطلقها كلما شاءت.

تتقدم حتى تصل لأول صف من المقاعد الخشبية فتجلس مقابلةً تمثال العذراء الكبير.

"يا سيدة إفريقيا.. تضرَّعي لأجلنا ولأجل المسلمين"، تتوسط تلك الجملة بالعربية القوس الكبير المقابل للجالسين. يحدُّه من الأعلى إفريز من نقوش على شكل نجمة داود، ثم يمتد للقبة الكبرى التي تحمل فوق رأسها الصليب. هل يجمع حائط واحد في الدنيا الأديان الثلاثة معًا إلا هذا القوس؟

لم تكن رسوم السقف الزاهية ولا أشعَّة الشمس التي لوَّنها الزجاج المُعشَّق هي ما يأسرها في هذا المكان، بل صموده وعصيانه على المستجدات. هذه الكنيسة رفضت أن تتحول، تمامًا مثل جدِّها الذي رفض أن يتعلم العربية بعد أن تجاوز

الستين. كان وجهه مليئًا بالكدمات، وعجز عن نطق الفاء لجُرحٍ عميقٍ في شفته السفلى وهو يخبرها:

- نحن أمازيغ يا فريـال، نحن السكان الأصليون لشمال إفريقيا كلها. لم نتعرَّب على يد موسى بن نصير، ولم نتفرنس على يد الفرنسيين، فلماذا يظن بو مدين أنه سيُعرِّبنا؟

ضربوه في المخفر لأنه لا يتحدث العربية. لم يراعوا لحيته البيضاء ولا كفَّيه الناحلتين. استحق العقاب عندما سأله عريف شرطة باللهجة الدارجة فلم يفهم. وكيف يجيد لغة لم يدرسها يومًا ولا يتحدث بها أحد في قريته؟

خرجَتْ من البوابة الضخمة لتلقي نظرةً أخيرةً على البحر من أعلى الجبل، لا تستطيع سماع مَوجِه بسبب الارتفاع، فقط صوت الهواء يملأ أذنيها. رفعت رأسها لتسترد شموخها.

"أنا مثل جدِّي، مثل الكنيسة، مثل على الذي لم ينحنِ وهو يُقتل رميًا بالرصاص على يدَي الفرنسيين الغزاة". يُعجبها كثيرًا على وشخصيته، فقد ظل طوال الفيلم متهمًا من بني قريته وأسرته بموالاته للفرنسيين وخيانته للقضية، وهو يستقبل ازدراءَهم ببساطة، ولا يحاول تبرير موقفه أو الدفاع عن نفسه، حتى إذا اقتربت النهاية وافتُضح أمره أتى المستعمرون لقتله واعتقاله من منزله، بعد أن ثبتت لهم وطنيته وخداعه لهم. وقف أهل قريته يشاهدون المُلوَّنين ببُزَّاتهم العسكرية وهم يقبضون عليه، لم يحرك أحد منهم ساكنًا للدفاع عنه، فقط أخوه صرخ فيه آمرًا ألَّا ينحني، أن يموت واقفًا. بكت أمه عندما علمت أن النهاية قادمة لا محالة، ثم زغردت وزغرد معها النساء فور إطلاق النار على ظهره وقد علمن أنه نال الشهادة. أما الرجال، فكانت شجاعتهم تتجلَّى فقط في سِبَابه عندما حسبوه "حركيًّا" أو خائنًا. أما وقد تمت تبرئته فهم لا يحاولون إنقاذه، هكذا هي شجاعة البعض.

لقد مات بومدين وعاش جدي في قلبي. حدثَتْها نفسُها وهي تسير متجهةً إلى التليفريك العائد إلى الأرض. في أذنيها فقط تتردد الزغاريد والتكبيرات من المشهد الختامي لفيلم "علي موت واقف".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

سرحت في البخار المتهادي فوق سطح قِدْر الكُسْكُس، ظهوره للمرة الثالثة يعني تمام التسوية، الآن تفرغه في القصعة وتضيف إليه مكعبات الزبد ليصبح جاهزًا للأكل. عمل يخلو من أي إبداع. "هل هذا ما تفعلينه الآن يا أمي طوال اليوم؟".. كنت أشكو من سخف تفوير الكسكس الذي لا يليق إلا بالكسالى، وكنَّا نتندَّر بأنه عمل خالتي الوحيد في بلچيكا في مطعم زوجها. عساها تجلس الآن على الآلة الحاسبة كسيدة أعمال راقية فيما تتولين أنتِ يا أمي التفوير في القدور العملاقة. هزت رأسها متحسرةً: "لعن اللـه يوم أتتك تلك الفكرة".

عادت من الجامعة مبكرةً اليوم؛ فقد وقعت بالأمس مجزرة شنيعة بسيدي العنتري التابعة لولاية تيارت، قتل فيها الإسلاميون أكثر من مائة وعشرون جزائريًّا. الدَّرَك في كل مكان حتى في المدرجات. لم تنتظم الدراسة اليوم بسبب القلق والاعتقالات. اختفى كثيرٌ من الطلبة، مَن كان من ناحية ولاية تيارت يتحرى معارفه في أسماء الشهداء وطلبة الجبهة الإسلامية للإنقاذ، منهم من قُبض عليه ومنهم من ينتظر، ليتهم أبادوهم جميعًا عن بكرة أبيهم، حدَّثَتْها نفسها.

غابت فريـال أيضًا كما غاب حميد، ربما سافر أبوه إلى سيدي العنتري لتفقُّد المجزرة فتسللا إلى كابينة موريتي يقضيان اليوم بين الشاطئ والسرير. لا يقوَى على الملاطفة في هذه الأجواء إلا من مات قلبه.

لا يخلو دارٌ من فقيد: إسلامي الهوى، أو دركي الوظيفة، أو فقط قاده قدَرُه إلى حيث يحصد الإرهاب رؤوسًا بالجملة بغرض بث الرعب. كل من بقي في الجزائر إما مات هو، أو مات أحد ذويه، أو مات قلبه، إلا مَن رحم ربي.

عادت لمياء من مدرستها شاحبةً، عيناها مفتوحتان لآخرهما وفمها فاغر في ذهول:

- هل رأيتِ فريـال اليوم يا فاطيما؟

- لا، لم تأتِ إلى الجامعة.

ثم أردفت وقد بدأ القلق يعتريها:

- لماذا تسألين؟

- أسماء شهداء سيدي العنتري اليوم في جريدة الخبر، من بينهم اسم فريـال آيت عيسى.

ثم فرَّت من عينيها الدموع وهي تسأل أختها:

- هل تكون هي؟ أرجو من اللـه أن تكون واحدة أخرى.

دارت فاطيما بالهاتف على كل أصدقائهما المشتركين فلم تجد إجابة شافية، لم يَرَ اليوم أحدٌ فريـالَ ولا حميد. وحدها آخر مكالمة لسعاد جارة فريـال كانت تحمل الخبر المشئوم:

- لقد أتى اليوم شرطيَّان من المخفر لدار خالتي كنزة وأخبراها بأن تأتي لتتسلم جثة ابنتها من المشرحة.

بكتها فاطيما حتى جف ماء عينيها. أطفأت نور الغرفة واستلقت في سريرها بلا حركة. "تأبى المصائب أن تأتي فُرادَى، بالأمس أمي واليوم فريـال، ارفق بي يا ربي".

دخل عليها أبوها في المساء. لم يكن مخمورًا تمامًا، فقط تفوح من أنفاسه رائحة النبيذ. حاول التسرية عنها فلم يُفلح، لم تكن في حالة تسمح لها بالتواصل. قبل أن يغادر الغرفة سألها:

- متى رأيتِها آخر مرة؟

خرج صوتها ضعيفًا من الحزن:

- كانت معي بالجامعة أول أمس.

حاول إطالة الحديث معها ليُخرجها من حزنها:

- ولم تسألي عنها بالأمس أو اليوم؟

مسحت أنفها بيدها قبل أن تجيبه باقتضاب:

- لم تكن شديدة المواظبة.

لن تشرح لوالدها لماذا اعتادت - رحمها اللـه - الغياب، لن تهتك ستر صديقة خاصة وهي بين يدَيْ خالقها.

لم يشأ صالح إنهاء حوار وُدِّي مع ابنته طالما تمنى حدوثه فاسترسل:

- متى سافرت إلى تيارت إذن؟

انتبهت ملامحها فجأة، حقًّا متى ولماذا سافرت لتيارت؟ أمها هنا وهم ليسوا من هناك.. ربما يعرف حميد السبب، لكن أين هو الآن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

المطعم صغير جدًّا، أربع مناضد فقط في الطابق الأرضي، تتدلى من السقف ثُريَّات نُحاسية صفراء، الإضاءة تعجز عن إنارة الحوائط المكسوَّة بخشب بُنِّي فتترك الصالة خافتة الإضاءة مترنحة بين الرومانسية والقِدَم. تنتهي القاعة بباب المطبخ على اليمين وسلم خشبي ضيق على اليسار. في ركنٍ صغيرٍ بجوار الباب يجلس حسن علَى طاولة ضيقة مرتفعة مغطاة بمفرش من البرودريه الأبيض، تعلوها آلتُه الحاسبة.

تتجول نعيمة بين الطاولات في الطابقين. تناول الأطباق وتسوِّي المفارش الحمراء المغطاة بمشمع شفاف سهل التنظيف، بينما سلَّمت مكانها القديم في المطبخ لباهية. باب المطبخ هو نافذتها على العالم الخارجي، تقضي نصف اليوم خلفه بين القدور والصحون. تعود من بعد يومها للمنزل لا تقوَى على الخروج لمشاهدة البلد النظيف الأوروبي الذي هاجرت إليه طمعًا في الراحة. تسمع من خلف الباب لكنات الزبائن، أغلبهم جزائريون، قليل من كان تونسيًّا أو مغربيًّا. أين البلچيك إذن؟ لماذا لا يأتون إلا لِمَامًا؟

رفعت نعيمة صوت الموسيقى لتبدأ الأمسية كعادتها مع اقتراب الثامنة مساءً.. فهمت باهية أن الزبائن بدءُوا في التوافد. تشعل النيران قبل العشاء بساعات، تقف وسط القدور الكبيرة مرتدية جلَّابةً مُطَّرزة، ما أسخفها من فكرة. مطبخها بالجزائر أرحَب وأكثر تنسيقًا، تدخله الشمس والهواء من شرفته الخلفية، تُرى إن عادت تجد جلدة الكبش مفترشة الرقعة المشمسة لتجلس عليها وتدخن حتى تنتهي من إعداد الطعام؟

تذكَّرت في أوائل زواجها، كانت العمارات المقابلة لها كلها مطلية باللون الأبيض وأسوار الشرفات من الحديد المشغول لونها كزرقة البحر. مبانٍ فنية صممها ونفذها الفرنسيون قبل الجلاء. لم تكتسب العاصمة اسم الجزائر البيضاء من فراغ، فقد كان هذا شكل المدينة بأسرها.

نحَّت عن رأسها استنكافها للزِّيّ، كما تناست عامدةً اضطرابها الذي لا يهدأ، تعتصرها آلام فراق بناتها كلما فرغت لنفسها قليلًا. صارت تفزع لرؤية زهرة، لم تستطِع إلحاقها بمدرسة ولا تُجالسها تحدثها، فقط حرمتها من أخواتها وأبيها وصديقاتها. لم تدَّخر دينارًا، بل لم تتقاضَ أجرًا من الأساس. تعمل بالمطعم مقابل طعامهن والحجرة، لم تتفق معها نعيمة على ذلك صراحةً لكن حسن لم يتردد في شرحها في جملة واحدة بلا مواربة.

لم تستطع مواصلة التفكير فأوقفت مُخَّها عامدة، مهارة جديدة سرعان ما اكتسبتها لتستطيع الاستمرار. قرَّبت المقعد الصغير من باب المطبخ وجلست لتستريح لدقائق وتسرح مع دحمان الحراشي وهو ينشد:

يالرايح وين مسافر تروح تعيا وتولي (9)

شحال ندموا العباد الغافلين قبلك وقبلي

شحال شفت البلدان العامرين والبر الخالي

شحال ضيعت وقت وشحال تزيد ما زال تخلي

يالغايب في بلاد الناس شحال تعيا ما تجري

بك وعد القدرة ولى الزمان وأنت ما تدري

حقًّا، لماذا يبذل العرب الكثير كي يأتوا إلى هنا ثم يتباكون على تلك الأغنية؟ ومَنْ أنا لأنتقد؟ ألم أهرب مثلهم لأجلس هنا وسط القدور أطهو للغرباء، وقد تركت بناتي يواجهن مصيرهن وحدهن؟ سُحقًا، حتى التسلِّي يُذكِّرني بهَمِّي.

ما يدوموا الأيام ولا يطول صغرك وصغري

يا حليلو مسكين اللي خاب سعده كي زهري

قامت باهية إلى طناجرها قبل أن تنفجر في البكاء؛ فقد مرَّ عليها شهران في هذا الحال ولا ترى في الأفق فرجًا قريبًا. حاولت إيجاد عمل آخر فلم تُفلح، مثلها كثيرات بل ويحسدنها على عملها بالمطعم. حتى الحمَّام يشترط خبرة مسبقة، أو جمالًا فائرًا وسنًّا صغيرة. الذل أقسى من الموت على الجزائري، والأقسى أنها قد حرقت جسورها وما عاد للرجوع من سبيل.

يا مسافر نعطيك وصايتي اديها عالبكري

شوف ما يصلح بيك قبل ما تبيع وما تشري

ليس من جزائري إلا ويعرف هذا البيت عن ظهر قلب، فمالي أراهم جميعًا قد هجروا الديار وأتوا إلى بلچيكا ليأسوا على ما فاتهم على أنغامه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

كل شيء هادئ في باب الزوَّار. قُتلت فريـال بالأمس ولكن لا أحد يكترث. أي لعنة أصابت هذا البلد فسلبت الموت رونقه؟ كيف أصبح خبرًا عاديًّا لا يستوقفنا طويلًا؟ مَنْ أنزل الموت من عليائه ليقف بين ظهرانينا بسحنة تشبه سحنتنا كثيرًا فلا نلتفت لوجوده؟ لم يفعل بنا ذلك سوى الوفرة في القتل، وفرة أورثتنا كرمًا فيه حتى صرنا نَهبُه لأتفه الأسباب.

دخلت من البوابة الحديدية الكبيرة، لا شيء مختلف. مجموعة تضحك، آخرون يدخنون، تتهادى جميلة في رداء قصير يتبعها بناظريه شاب أو أكثر، نحيل بنظارات سميكة مُكبًّا على كتابه. ملصقات الجبهة الإسلامية للإنقاذ عن الحجاب وصلاة الفجر في مكانها. متى سمعت هذا الكلام قريبًا؟ كان بالتلفزة يناقشه عباس مدني أو علي بالحاج لا أتذكر، هو أحد هذين الشيطانين اللذين يحمِّلهما الناس ذنب ما أُريق من دماء وتحمِّلهما فاطيما هروب أمها ودمَ صاحبتها.

أرادت أن تصرخ فيهم: "ماذا دهاكم؟ لقد زارنا مَلَك الموت بالأمس، اقتنص روح فريـال وطار بها إلى السماوات العلا، فكيف لا تخشعون؟".. يؤلمها أن البعض لم يدرِ بموتها من الأساس، يؤلمها أكثر مَنْ علم بموتها ولم يتأثر.

"وحده حميد يملك حل اللغز، أخشى أن أراه متأقلمًا مثلهم غير عابئ".

دارت على كل القاعات والمدرجات، سألت أصدقاءه وزملاءه؛ لم يَرَهُ أحد منذ يومين.

غريب اختفاء حميد، والأغرب هو اختفاء عبد المؤمن، زميلهم المنتمي للجبهة الإسلامية. ما من يوم إلا وتراه في الجامعة بمظهره المختلف: سرواله القصير ولِحْيَته المتفرقة في وجهه، لم يكتمل نموها ولكنه يصرُّ على إطلاقها مع الحرص على حفِّ شاربه الهزيل. يوزع ملصقات الحجاب على زملائه المنتمين للجبهة أو يتناقش مع القادمين حديثًا إلى باب الزوَّار من الولايات البعيدة، يُجنِّد بعضهم؟ ربما. أو يعمل حثيثًا على أن يقدم يد العون للمحتاجين.

تمامًا مثلما فعلت جماعته وقت زلزال تيبازا منذ عشرة أعوام. كانوا بالمدينة قبل الحماية المدنية، يمنحون الأغطية والخيام ويوقدون تحت القدور الضخمة يعدُّون الطعام للمتضررين. ما زال البعض يصدقون تلك الحيل فيبتلعون الطُّعْم ويتبعون أولئك الشياطين. أنجاك إبليس من يدي اليوم يا عبد المؤمن، قتلَتْ جماعتُك أختي ولن أُفلتك ولن أفلتهم وإن بذلت روحي.

دارت عائدةً من حيث أتت، الجامعة لا تُحتمل من دونها. نزلت بشارع محمد بلوزداد، دارت مع حديقة التجارب "الحامة" متجهةً نحو شارع حسيبة بن بوعلي. رأسها مثقل بالأسئلة ما الذي ذهب بفريـال إلى تيارت؟ هل كان حميد معها؟ هل هو مَن سافر بها؟ أين ذهب إذن؟ لم يُدرج اسمه في قائمة الضحايا، ولم يظهر منذ الأمس، هل قتله عبد المؤمن؟ مَنْ في الجامعة لم يحسد حميد على تعلق فريـال به؟

هو من المقربين لمدني مرزاق زعيم الجيش الإسلامي للإنقاذ، لا تفتري عليه قد سمعته بأذنيها يخبر أحدهم بذاك. أتُراه أقنعه بأن ابن الجنرال صيد ثمين وضربة موجعة لبِنْ طالب ومَن هم على شاكلته؟

قُتلت فريـال خطأً لأنها كانت معه، وربما لأنها تعرفت إلى عبد المؤمن فأرداها كَيْلَا تنطق. خيالها لا يكفُّ عن إفراز سيناريوهات جديدة للجريمة كلها محتملة، وحدها الحقيقة هي ما لا تعرف لها من سبيل.

مرت بجوارها سيارة قديمة يخرج منها صوت وردة الجزائرية مغنيًا:

واللـه وجيتي علينا يا دنيا

جيتي علينا

وجيتي كتير على ناس قبلينا

تبقى وردة بنت الجزائر وإن كانت لا تغني إلا بالمصرية، وإن كانت نصف جزائرية فقط، وإن كانت تعيش خارج البلاد. يبقى اسم بلدك يلاحقك أينما تذهب، ولربما ألصقته أنت بنفسك لتتمايز عن الآخرين.

قادتها قدماها إلى مدرسة لمياء ومدرستها سابقًا، تبدو خاويةً برغم أن اليوم الدراسي لم يَنْتهِ بعد. دخلت بخُطًى قصيرة استكشافية فلم يعترض طريقها أحد. شعرت براحة وهي تتوغل للداخل، فناء المدرسة كآلة الزمن يعيدك للطفولة كلما تعمقت فيه أكثر.

ليتكَ دمتَ أيها الفِناء، كانت أمي معي، وكانت فريـال حيَّةً تُرزق. لكن دوام الحال من المحال وسهم العمر إذا انطلق لا يوقفه إلا مَلَك الموت.

دخلت فصلًا كانت ترتاده من ست سنوات، شيء ما في جوِّه يعيدها للماضي. أحقًّا الماضي أجمل؟ أم أننا نحِنُّ إلى طمأنينة كانت تسكننا عندما كنا نسكنه؟

ألقت بحملها على مقعد في آخر الفصل واسترخت. مبنى بهذا الحجم فارغ بأكمله جدير بأن يلقي في قلبها الرعب، لكن أي رعب يقدر على مَنْ فقدت أمها ثم قُتلت صاحبتها؟ أي رعب أكثر من أن تعيش في الجزائر حيث تُقتل أنت وجميع سكان قريتك في وَضَح النهار؟

جفلت لدخول رجل عليها. نظر إليها مستفسرًا، بدا وجهه مألوفًا تعرفه، فقط دفعه الزمان لركن مهجور في رأسها. قاطع تفكيرها:

- أنتِ كنتِ تلميذتي؟

- أستاذ محسن؟

- نعم، وأنتِ؟

- فاطيما، تخرجت منذ أربع سنوات. أختي لا زالت هنا، لمياء.

اقترب منها أكثر، ثم جلس على مقعد غير بعيد.

- أتيتِ لزيارة أختك؟

- قادتني قدماي فدخلت (قالتها شاردة، ثم استدركت) أين التلاميذ؟

- حدث تفجير بسيط في بلكور صباحًا، فأعطينا التلاميذ نصف اليوم الثاني راحة.

ساد الصمت الفصل، قطعه محسن مجاملًا:

- أتعملين أم تدرسين؟

- أدرس الهندسة في باب الزوَّار.

- واليوم عطلة؟

- قُتِلتْ صديقتي أمس.

ثم اختنق صوتها ودمعت عيناها.

- سلامٌ قولًا من رب رحيم. كيف حدث...؟

- سيدي العنتري.

- فليرحمنا اللـه. من نواحي تيارت هي؟

- بيجاوية.

أحجم عن سؤالها عما ذهب بها إلى تيارت لِتُقتل. فاكتفى بالرد:

- "وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت".

- حقًّا وصدقًا. حتى أمها لا تدري لمَ ذهبت هناك، ولا أنا، ولا أحد.

كانت تحدِّث نفسها أكثر مما تخاطبه. لم تخبره عن شكوكها في تورط عبد المؤمن في الجريمة. من الأحوَط ألَّا يعرف أحد ما وصلت إليه.

- أتعنين أنها قُتلت وسط أهل سيدي العنتري التي لا تعرف منهم أحدًا؟

- واحد فقط ربما كان يعرف، لكنه أيضًا اختفى، حميد بن طالب زميلنا.

اكتست ملامحه جديَّةً قلقةً وهو يسأل:

- بِنْ طالب؟ أيقرب للچنرال؟

- ابنه، حميد.

ارتاب مما يسمع، الرسالة المجهولة جعلت سيرة الچنرالات مقرونة بالخوف من المجهول.

- ربما تعيَّن عليَّ الانصراف.

ثم قام واقفًا، غلبه فضوله فأبقى الباب مُوارَبًا عندما أردف:

- سنراك ثانية؟

قامت هي الأخرى فلا حاجة بالبقاء. تمشيَا متجاورين في الفِناء من دون حديث، رأساهما كطنجرتَيْ ضغط تعجَّان بالأسئلة حتى قاربا الانفجار.

أين حميد؟.. ماذا كانت تفعل فريـال بتيارت؟.. بأي ذنب قُتلت؟.. بأي ذنب أُبيدت تلك القرية؟.. هل حقًّا ما تقص عليَّ؟ لربما كانت هي مَنْ أرسل الخطاب؟ أم هي الصدفة التي جمعت زيارتها بخطاب المجهول؟

تصافحا لدى بوابة المدرسة، ودَّعها محسن قائلًا:

- أنا أبقى بعد اليوم الدراسي لساعة أو أكثر، أصحح الاختبارات أو أحضِّر لليوم التالي. لم يعُد لديَّ ما يعيدني للدار مبكرًا، إذا ما عرفت جديدًا عن صديقتك وأردت التحدث ستجدينني هنا.

هزت رأسها موافقة، ثم دارت يمينًا متجهةً لدارها فيما اتجه هو يسارًا متمهلًا ورأسه مُطرِق للأسفل يتفكر.

"فاطيما وفريـال، نعم بدأت أتذكَّر قليلًا. البيضاء الشهباء والخمرية ذات الوجه العادي. كانتا متفوقتين، ولكني كنت أحابي الشهباء رغمًا عني. أذكر يوم كنت أسأل التلاميذ معطيًا ظهري لهم عن اسم أصبح، نصبته الشهباء مخطئة، فنهرتُ السمراء مخطئًا. كانتا طفلتين، بالأحرى مراهقتين لا تكبران ابنتي إلا قليلًا، فلماذا فضَّلت إحداهن على الأخرى آنذاك؟.. تُرِي هل فضلها أيضًا ملَك الموت على فاطيما فعاجَلها؟.. أستغفر اللـه العظيم من كُلِّ ذنبٍ وأتوب إليه".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

مرَّ الأسبوع مرور الكرام؛ فلم يعكر سريانه أيُّ طارئ. يتعجل مرور الأيام ليخفف من وطأة وحدته. حاول ملء فراغ الخميس بشتى الطرق فلم يُفلح. شاهد التلفاز، أعدَّ الإفطار، قرأ كتابًا وجريدتين ولم يؤذن المغرب بعد. فكَّر في إقامة الفريضتين في المسجد القريب لكن فراغ الشارع من المارَّة جعله يُحجم عن هذه الفكرة، فإن كان الإرهاب يحصد المارة في الطرقات، فالشرطة أيضًا تراقب المُصلِّين في الجوامع عن كثب مخيف.

"آه لو بقيت معي يا سناء. لم يحدث ما يدعو لرفضك العودة وتركي هنا وحدي. أعلم أنه لم يكن الذعر ما أقعدك، بل حماقتي. لا يمكن إقصاء الخوف من الوضع الراهن كليةً ولومي وحدي على هذا الفراق، ربما خفت حقًّا مما يحدث هنا، ولم تخافي عليَّ؟ أنا لم أَخَفْ أصلًا وآثرت العودة حتى لو وحيدًا، بيدَ أني حمدت اللـه أن بقيت داليا في مصر لتدرس الجامعة هناك. أحمد اللـه أنها ليست مكان فريـال. فليرحمنا اللـه أحياءً وأمواتًا".

اقتربت الجمعة فاستعدَّ للخروج، لبس جلبابه المغربي ذا الخطوط الطولية العريضة وغطاء الرأس الملقى خلفه بين كتفيه. توضأ بالمنزل، رغم طول بقائه بالجزائر لم يتقبل فكرة الوضوء في أطباق بلاستيكية ملونة صغيرة يتداولها الجميع، لا زال الصنبور هو الأسهل والأنظف. ندرة الماء ربما هي ما دفعهم للحفاظ عليه هكذا، أم فقه المالكية؟ لا يهم، فقد اعتاد مساجدهم أكثر. اعتاد سماع قراءة "وَرْش" في الصلاة أكثر من "حَفْص"، اعتاد وجود حجر كبير بكل مسجد للتيمُّم حال الجفاف، أصبح يصلي مُدليًا يديه بجانبه غير عاقدهما على صدره. "صرتُ غريبًا حتى عن مساجدنا يا سناء فكيف أعود؟".

حضر الخُطْبة من أولها في الصف الأول. ختم الصلاة مع الإمام الذي قرأ آية الكرسي في مكبر الصوت بعد التسليمة الأولى مباشرة. تهادى متمشيًا نحو داره. حداه الفراغ لأن يتفرس في وجوه الشحاذين ويتأمل بضاعة الباعة المتجوِّلين. رد سلام بعض الـ "حيطيست" أو الملاصقين للحيط ليل نهار بسبب البِطَالة والفراغ، بعضٌ منهم كانوا تلامذته حتى تخرجوا وأصبحوا متعطِّلين.

تجمَّد في مكانه لحظاتٍ في مدخل المبنى؛ فقد لمح طرف ظرف أبيض يخرج من صندوق بريده. تلفَّت يَمنةً ويَسرةً ليتأكد، ليس بجواره أحد. خرج ليلقي نظرة على الشارع فلم يجد ما يسترعي الانتباه.

يتحرَّق لقراءته لكنه يخشى التوابع. أيهما أفضل؟ أيأخذه فيعلم تاركه أنه بحوزته؟ أم يتركه فلا يتورط أكثر؟ ماذا لو وقع في يد شخص آخر؟.. انتصر الفضول على التردد فاختطفه وأخفاه في جيب سرواله أسفل الجلباب وانطلق صاعدًا إلى شقته.

أحكم المزلاج، هُرِع إلى المطبخ، فتح الظَّرْف بسكِّينه الصغيرة، قرأ السطر في عُجالة ضاغطة ثم أحرق الخطاب والظرف وألقاهما بالحوض. تنفس مليًّا ليُبطئ

ضربات قلبه إلا أنه انتبه فجأة للجواب الأول، جرى الى المكتبة فأتى به ليحرقه بجانب أخيه. فتح الصنبور لينزل رمادهما في المجارير، وما إن انتهى حتى فتح المزلاج وجلس رصينًا في غرفة جلوسه يشرب قهوته؛ طمعًا في التركيز ويجترُّ ما قرأ:

"سيدي العنتري تنفيذ الأمن الوطني".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

بروكسل لا تشبه كثيرًا مولانبيك، فرغم أنه أحد أحيائها التسعة عشر فإنه أقرب للجزائر. أغلب المطاعم تقدم الكُسْكُس في نهار الجمعة، اللحم الحلال يسهل شراؤه من القصَّابين العرب، يبيعون أيضًا تمور دجلة نور والزيتون وزيته وسجق المرجاز وزجاجات الحمود البيضاء والسيليكتو الغازية. تصدح الحوانيت بالموسيقى المغاربية أو بالقرآن المُرتَّل لمقرئين كُثر.

عقب صلاة الجمعة، تقف زهرة أمام مسجد لقمان تحمل سلَّة ورد. إذا لم يسَعْها الالتحاق بالتعليم هذا العام فلا بأس من الحصول على بضع فرنكات. لا يمكن تشغيل الأطفال في أوروبا، وحده مولانبيك يسمح بذلك. "يسمح" ليست التعبير الصحيح، ولكن الشرطة تتحاشى هذا الحي إلا للضرورة القصوى.

أصبحت واجمةً طوال الوقت، لا ترى أمها إلا صباحًا وقبل النوم. لم تعُد تحدث أخواتها في الهاتف، لم يعُد لدى باهية من المال ما يُنفق على هذا الترف.

أضحت بين يوم وليلةٍ من طفلة مُدلَّلة في الدار إلى عائل الأسرة الصغيرة، فباهية لا تتقاضى أجرًا عن عملها في المطعم.

تدور زهرة بأزهارها مساءً على المقاهي والمطاعم، عمل غير ممتع ولا ذو ربح وفير، فقط يمنح باهية طمأنينةً زائفةً بأن لهُنَّ دخلًا قابلًا للازدياد.

بعد انتصاف الليل، تحتضنها باهية بشدة في سريرهن الصغير تحت السقف المنحني بالحجرة المنزوية. تفوح من باهية رائحة التوابل والدهون، تحاول زهرة التأفُّف فلا يخرج من فمها الكلام.

رغم التعب لا يقعن في النوم سريعًا، ما إن يُطفأ الضوء حتى تسرح كل واحدة في عالمها. فتعود زهرة طفلة فاطي ولامو المدللة، تحلم بأبيها غير مخمور ويُضاحكها، نعم قليلًا ما كان يحدث هذا ولكنه كان يحدث. تسعل فتأتيها أختها بزيت السانوج ([10]) الدافئ لتبتلعه بعد رفضٍ وبكاء. تُزعجها رائحة أوراق الكاليتوس ([11]) الذي تغليه باهية وتنشر عبقه في أنحاء الدار حتى لا تنتشر العدوى. ضجيج بيت عادي لا تفتقده حتى تفقده. يُعييها البؤس فتنتظم أنفاسها وتغطُّ في النوم.

باهية تذهب أبعد في الماضي، تذكر الجندي الفرنسي شارل. التقته ذات صباح عند شاطئ موريتي، كانت ذهبت لتسبح مع أختها نعيمة وجارتهن حافيضة عندما تعرَّفن إلى شارل وزميليه. كانوا مُجنَّدين مدنيين، لا يقاتلون وإن كانوا مسلحين كباقي الجنود، عملهم ينحصر في تدبير الطعام للجيش الفرنسي بالعاصمة، كيف نسميه مُستعمِرًا مَنْ أتى ليبتاع البيض والدجاج من الفلاحين بسعر جيد؟..

تذكر لهوها معه في البحر، كانوا يدخلون الماء جميعًا ثم يبدأ كل زوج بالانفصال تدريجيًّا عن الجمع ليختليا ببعضهما.

آخر لقاء بموريتي حاولت أن تدفع نفسها عليه دفعًا تحت الماء، صفعها وخرج من البحر مسرعًا. أعادت ارتداء لباسها تحت الماء قبل أن تخرج له، كان يدخن بعصبية، تذكر جيدًا آخر ما قال لها:

- أنا عائد إلى فرنسا قريبًا. أنتِ باقية هنا. من سيتزوجك إذا أطعتك؟

حسمت موقفها من الغزاة إثر فعلته هذه. فليسوا جميعًا قتلة، بعضهم آدمي مثلنا وأكثر. تحلم بأن تلتقي شارل صدفةً في بروكسل، ترك فرنسا ولم يتزوج أو ترك زوجته وأولاده وصار وحيدًا هنا في بلچيكا. سيتذكرها حتمًا، لم تتغير كثيرًا، أو عساه لن يلاحظ ما تغير فيها.

لا تذكر تحديدًا كم مضى على لقائهما الأخير فهي لم تفكر فيه إلَّا هنا. لم يكن يُطيل المكوث بخاطرها عندما كانت زوجةً وأمًّا وربَّة أسرة بالجزائر، فقط الآن تتمنى رؤيته وتنتظر الخلاص على يديه لا تعرف كيف. لكنها اعتادت الخروج لصالة المطعم بأي حجة لتتفرَّس في وجوه الزبائن، لربما ترك شارل فرنسا، وترك زوجته وأولاده وأتى إلى مولانبيك بحثًا عن صحن مغاربي يسترجع بمذاقه شبابه فيجدها أمامه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

اقترب العام على الانتهاء ولم تنتهِ عزلة صالح. يدخل حانوته كل صباح من دون أن يُحيِّي جيرانه أو يلتفت لأحد، فلا يخرج منه حتى يحلَّ الظلام ليغلقه ويتمشى عائدًا من حيث أتى. ما عاد يَقفُل مع الظهيرة ليتناول غداءه مثل الجميع. حاول سي الطاهر كثيرًا جذبه لحوار لكنه لم يَسْتجِب. الكل يعرف السبب الآن، لا يختبئ سر في الجزائر خاصةً في أيامنا تلك. فإن قلَّ العمل كثُر الجدل والناس لا تجيد اليوم سوى الكلام.

مرَّ سي الطاهر بحانوته ليلقي السلام كعادته، وجد نظارة صالح ينقصها ذراع فاستغل الفرصة:

- لم نعُد إخوة يا صالح أم ماذا دهاك؟ تكسر نظارتك ولا تأتيني أُصلحها لك؟

تحامل صالح على نفسه ليجامل، لا طاقة له بالحديث أصلًا لكن يُثقله تجاهله لمحاولات صديقه للحديث معه.

- لقد كُسرت مساء أمس، كنت سآتيك طبعًا لإصلاحها.

لم يخبره كيف كُسرت. لم يستطع قصَّ ما حدث بالحانة أمس. فقد شرب حتى قارَب تمام السُّكْر، بدأ يصفو وتهدأ أمواج كانت تمور بداخله. تسلَّل إلى روحه شيء من الاستقرار حتى أطلق أحد الشعراء العراقيين عقيرته ببيت قديم، كثير التحذلق بعربيته التي يتميز بها عن ندمائه:

اللـه يخرب بيتًا أنت ساكنه

وبيت أمك يا بكر بن مناعِ

يا بْنَ التي هربت من زوجها حسن

شيخ الطريقة وراحت رافقت ساعي

ضحك السُّكارَى أدمى جراحه التي بالغ في تغطيتها بالكحول فقام منتفضًا، وقعت نظارته من فوق أنفه من دون أن يُعيرها التفاتًا، دهسها في طريقه للباب مندفعًا، أوقفه بِنَّاي النادل وأعطاه إيَّاها وضعها بجيبه قبل أن يلوذ بالفرار. استيقظ صباحًا فوجدها بذراع واحدة، وضعها فوق أنفه واتجه لمشغله، قد اختارته الدنيا كمَصبٍّ للهزائم ولن تُجدي المقاومة نفعًا.

ابتسم سي الطاهر مُرحِّبًا وجذبه من يده مُخرِجًا إياه من شروده:

- لن نصلح شيئًا يا سيدي، تعالَ معي وخذ هدية عامك القادم. أتتني مجموعة جديدة من الإطارات الفاخرة، سننتقي واحدًا مناسبًا لتلك العدسات وتخرج من عندي أكثر وجاهة.

حاول صالح التملص منه، فهو لا يملك ثمن الإطار ولا يعبأ بتألق وجاهته أو انعدامها. سحب يده للخلف متشبثًا بجلسته:

- ربما لاحقًا؛ فلا يمكن أن أترك حانوتي خاويًا في وسط النهار.

لم يعلق سي الطاهر على منضدة العمل الخاوية والمكواة غير المتصلة بالكهرباء والماكينات التي يعلوها الغبار، وواصل ضغطه:

- خمس دقائق فقط.. سي صالح وننتهي من تغيير الإطار، قُمْ معي هيَّا.

لم يقاوم أكثر من ذلك، ربما أراد في داخله أن يُخرجه أحد من عزلته، فقام معه متكاسلًا.

حانوت سي الطاهر أكثر بهجةً من مشغل صالح، فالأرضية من الرخام الأبيض والمَرايَا على الجانبين يحبسان أشعة الشمس بداخل المحل فيزيدانه دفئًا وإضاءة.

شد الطاهر مقعده الصغير من خلف النافذة الزجاجية ليضعه أمام صالح. أحضر صينية صغيرة عليها برَّاد شاي وكوبان ملونان أعدَّها سَلفًا. أخرج سيجارتين وأشعلهما ثم مد إحداهن لصالح الذي تناولها في صمت. بدأه طاهر بالحديث:

- سمعت ما حدث في حي الأربعاء؟

- ماذا حدث؟ (أجابه صالح غير مهتم).

ارتشف طاهر من شايه ورفع يمناه في الهواء لجذب انتباه مُحدِّثه. ثم رفع صوته في أول جملة ليزيد حديثه تشويقًا:

- عُرْس في □يلا...

ثم استطرد:

- والناس يحتفلون، دخل عليهم ثلاثة من الشرطة. وبينما كانوا يتحدثون أخرج الشرطيون أسلحتهم وأطلقوا النار على الحضور فأردوهم جميعًا. لم يتركوا خلفهم أحياءً سوى العروسين.

سحب طاهر نَفَسًا من سيجارته قبل أن يكمل:

- أفادت العروس في أقوالها إن مرتكبي الحادث لم يكونوا من الشرطة إنما مُنتحَلين، عرفتهم من أحذيتهم الرياضية.

أسند صالح مِرْفَقه على الطاولة الزجاجية وأراح رأسه على كفِّه، أضاق حدقتيه قبل أن يسأله:

- ثلاثة إرهابيون، أحضروا ملابس شرطة وأسلحة نارية ورتَّبوا هذه الجريمة. كل هذا ونسوا إحضار أحذية سوداء؟

- ليس من جريمة كاملة يا سي صالح.

- واللـه نحن في الجريمة الكاملة منذ سنين يا أخي.

رجع الطاهر بظهره مستنكرًا:

- ما زلت ترى الدولة ضالعةً فيما نحن فيه؟

- كيف لا ترى أنت هذا؟ من أين أتى كل هؤلاء المجرمين فجأة؟ خبراء، مدربين، لا يقدر عليهم أحد؟ سبع سنوات يا طاهر!

- ليس من السهل محاربة الإرهاب يا أخي. كما أنه يحدث في كل بلاد العالم فلا تُلقِ باللوم على حكومتنا.

رفع صالح ذقنه في دهشةٍ قبل أن يجيبه مستنكرًا:

- وحكومتنا تحاول محاربته؟

تردد الطاهر قبل أن يُجيبه مخافةَ إفزاعه وإنهاء الحديث، لكنه لم يُطِقْ صبرًا على تلميحات صديقه؛ فمضغ جملة قصيرة بصوت خفيض:

- ما زلت تدافع عمَّن انتخبت.

- لم أذكرهم أصلًا، أنت من زججت بهم بالحوار لست أنا.

وقف الطاهر محولًا دفَّة الحديث لناحيةٍ أخرى:

- هيَّا اخلع نظارتك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

لم تتجه فاطيما نحو الدار بعد الجامعة، تلكَّأت قليلًا بعد محاضراتها ثم سلكت طريقًا ينتهي بالمدرسة. لا تستطيع ترتيب أفكارها، هناك قطعة ناقصة تجعل فهم ما حدث مستحيلًا. تمنت لو لم يكن أبوها أباها، لكان قبلتها اليوم لتفكر معه. تذكر كيف تعجَّب محسن يوم قصت عليه خبر فريـال من ذهابها لسيدي العنتري، تعجب صالح أيضًا لكنه لم يفهمها. لا تضمن أن يتفهَّم الأستاذ تساؤلاتها، لكنه أول من جال بخاطرها عندما قررت البوح بما تعرف. تقدَّمت في الفناء بإصرار بعد أن ألقت سلامًا ممضوغًا على الحارس الذي لم يُعِرها التفاتًا. لم يَطُلْ بحثُها، كان جالسًا يتأمل السقف في حجرة التدريس. تهلَّل لرؤيتها فباغتها الخجل، لم تفكر كيف ستبدأ مفاتحته فيما أتت من أجله. تبادلا عبارات الترحيب المهترئة، ساعدها مبادرًا:

- أرى في رأسك أمرًا يشغلك.

- تذكُر صديقتي فريـال؟ تلك التي قُتلت في سيدي العنتري.

هز رأسه مُشجِّعًا، فاسترسلت:

- كل ما يحيط بوفاتها غير مفهوم، بدايةً من وفاتها ناحية تيارت التي لا تعرف فيها أحدًا، وانتهاءً باختفاء حميد آخر من كان معها.

شعر محسن باتساع مساحة المدرسة وحجرة التدريس.. ظلَّت الأرض تمتدُّ تحته حتى أصبح كنقطة صغيرة في ركنٍ منها. ابتعدت بوابة المدرسة كثيرًا وتخافتت كل الأصوات إلا صوت نبضه في أذنيه.

- أتحتسين قهوة؟

اندفعت من فمه الجملة من دون تدبُّر، لم يجد فكرة أفضل للهروب من المدرسة المتسعة متعددة الأبواب، فلربما باغتهم الدَّرَك من أي ناحية أو طوَّق السور فما استطاع منهم فكاكًا.

- ماذا؟ (أجابته بخيبة أمل بادية).

- سيغلق الحارس الأبواب قريبًا، والأمر يحتاج لتفكيرٍ طويل.

قالها وهو يقف ممسكًا بحقيبته ناظرًا بتوجُّس ناحية الباب.

استقر بها على منضدة منزوية في مقهى "الفصول الأربعة"، بعد أن قطع المسافة من المدرسة في خطوات طويلة سريعة وهو يتلفت حوله في ترقُّب. مسح نظارته بمنديل ثم جفف بها جبهته ورقبته محاولًا استعادة هدوئه:

- كنت تقولين إن ظروف قتل صديقتك غامضة. ما الذي أوحى إليك بذلك؟

- لقد تحدثت مع الزملاء ومع أمها وقرأت الخبر في الجريدة مراتٍ ومرات. أنا أقرب صديقاتها إليها وأعرف عنها ما لا تعرفه أمها؛ فإن كان لأحد أن يعرف خبايا

ما صار لكنت أنا من دون سواي. ومع ذلك، فأنا لم أفهم شيئًا.

لاحظت أنها قد استحوذت على مداركه؛ فأردفت:

- ليس هناك من سبب لذهابها لقرية تابعة لتيارت. ولِمَ تذهب أصلًا في يوم دراسي إلى بلدٍ لا تعرف فيه أحدًا وليس بصحبتها أحد، ثم تُقتل هناك في مذبحة كبيرة؟

- "وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تمُوت".

- صدق اللـه العظيم. لم أعترض، لكن لِمَ ذهبت؟ ثانيًا، مَنْ كان يصحبها هنا أو هناك كان صديقها حميد.

- تعنين ابن الچنرال بن طالب؟

- نعم هو، وقد اختفى تمامًا، حتى أصدقاؤه لا يعرفون له طريقًا.

- لربما قُتل معها؟

- سيارته راقدة أمام الدار واسمه ليس في قائمة القتلى.

نسي محسن وساوسه من أن تكون مكيدة من الدرك، تذكَّر حجمه الحقيقي فهو لا يستحق مؤامرة بهذا الحجم للإيقاع به، فأمثاله يختفون فقط فلا يبين لهم أثرٌ للأبد.

- ولماذا تظنين أنك تعرفين كل شيء؟ من الوارد أن يكون هناك سرٌّ في حياتها ذهب بها إلى سيدي العنتري، لا تعرفينه ولم تخبر به أحدًا.

هزت رأسها لأسفل مُفكِّرةً قبل أن تجيب:

- لو أرادت التغيُّب عن الجامعة من دون علم أمها لأخبرتني لأغطيها. هذا ما كانت تفعله لقضاء يوم مع حميد. فإذا لم تكن أخبرتني فهذا لا يعني سوى أنها كانت في طريقها للجامعة ثم قررت أن تذهب إلى هناك من دون سابق تخطيط. ثم إن هناك نقطة أخرى، لقد تسلَّمت أُمُّها الجثمان من مستشفى مصطفى باشا.

- هنا بالعاصمة؟

- نعم هنا.

- ماذا! ألم يكن المفروض أن تتسلمه من تيارت؟

- أعتقد هذا!

- لذلك لا أجد ما حدث منطقيًّا.

ترددَتْ قليلًا قبل أن تستطرد:

- هناك شيء آخر مُحيِّر وأعتقد أنه هو مفتاح خزانة الأسرار؛ عبد المؤمن رأس جماعة جبهة الإنقاذ بالجامعة مُتغيِّب منذ الحادثة أيضًا. لكن زملاءه لا يبدو عليهم القلق لغيابه. لا أفهم شيئًا وربما كان الحل مع حميد، لكنه أيضًا مُختفٍ ولا يعلم عنه أحد شيئًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

لم يكد يستشعر ملل الأيام من دون فاطيما؛ حتى ظهرت مجددًا، كعادتها متوترة لا يستقر رأسها على وضع من دون الإتيان بحركات مفاجئة كرأس العصفور. قابلته صباحًا، اصطحبت أختها لتبرر وجودها عند مدخل المدرسة. متعجلة لتلحق بمحاضراتها لم تزِدْ على كلمتين:

- أقابلك في الرابعة في مقهى السماء الزرقاء؟

هزَّ رأسه موافقًا قبل أن تُسعفه الكلمات التي خرجت من فمه دونما تفكير:

- نعم، نعم في الرابعة.

شاهدها وهي تنسحب مسرعةً في سروالها الچينز وحذائها المسطح، لا يتطاير شعرُها رغم سرعتها والهواء. سرعان ما ابتلعها الشارع؛ فأطرق مفكرًا: "ولماذا السماء الزرقاء؟" ودَّ لو دعاها إلى الأوراسي بدلًا من تلك القهوة الصغيرة الغائمة في دخان التبغ.

أي مكان أفضل من شرفة هذا الفندق الضخم الجاثم في وسط جبل صغير في تلك المدينة لشرب الشاي مع فتاة؟ لم يكن شايُهم أفضل منه في المقاهي العادية، لكنه المنظر الذي يجعلك تدفع عشرة أضعاف السعر وأنت راضٍ سعيد. البحر بالأسفل يحتضنه الجبل الأخضر بجوار المنازل البيضاء القصيرة المتراصة، يُذكِّره بشرفة فندق شيبرد في وسط المدينة التي تطل على النيل. كان يصطحب سناء إلى هذا الفندق أثناء فترة الخِطْبة. لماذا يصرُّ المُحبُّون على التلاقي في أماكن خلابة ثم يُديرون ظهورهم لجمالها ويتفرس أحدهم في وجه الآخر؟ يا لحماقتهم!

"ليس موعدًا غراميًّا بكل تأكيد، الطفلة من عمر ابنتي تقريبًا فلِمَ ترددت في قبول الدعوة؟ ما تلك الدعوة أصلًا؟ وماذا تريد هي؟؟.. تغافل متعمدًا عمَّا يدور في رأسه ليلقي دروسه، بيدَ أن مشهد جلسته مع فاطيما في المقهى ظل يقفز أمام عقله لمراتٍ عديدة طوال اليوم.

لم يبقَ بحجرة المعلمين بعد انتهاء يومه الدراسي، بل توجه من فوره إلى المقهى المتفق عليه. سيصل ربع ساعة قبل الموعد، سيختار مكانًا مستترًا بعض الشيء، في المرة الماضية اختار مقعدًا يكشف المدخل خشية أن يفاجئه الدَّرَك، أما اليوم فيشعر أن موعده يستحق شيئًا من الخصوصية. سيطلب شايًا ويجلس لينتظر.

قطع أفكاره عند رؤيتها، قد حضرت مبكرة أيضًا. أطفأت سيجارتها في تسرُّع لدى دخوله من الباب.

- أعتذر عن التدخين، لم أتوقع حضورك مبكرًا..

أشاح بيده كنايةً عن عدم الاكتراث، وابتسم وهو يسحب مقعده للجلوس:

- أشعر أن لديك الكثير من الأخبار.

ثم اقترب بصدره من المنضدة ليسمعها مع ضجيج المكان:

- ليس هذا تحديدًا، لكن الغموض في ازدياد ولديَّ فكرة لكشفه كله.

أمال رأسه متسائلًا:

- كيف هذا وذاك؟

- بات اختفاء حميد مؤكدًا، فلم يعُد يعرف أحد مكانه. كما لم يظهر اسمه كضحية في أيَّة حادثة إرهابية، لقد تيقَّنت بنفسي.

قاطَع استرسالها الساقي الذي طلب منه محسن شايًا لاثنين، من دون سؤالها عمَّا تريد أن تشرب. انصرف الساقي؛ فأكملت:

- لا يمكن أن تكون تلك مصادفة، كما لا يمكن أن يكون حميد على علاقة بجبهة الإنقاذ أو مَنْ على شاكلتهم.

- وما علاقة جبهة الإنقاذ بقصتنا؟

- هم من قتلوا فريـال، أنسيت عبد المؤمن؟

لم يعرف كيف يُخبرها بما بلغه عبر الخطابات كما لم يُرِد أن يقتل حماسها البادي؛ فعاد برأسه للوراء كمن استدرك بعد نسيان:

- قطعًا لا يمكن لابن الجنرال الانضمام للجبهة. وهل ما زال عبد المؤمن مختفيًا؟

- عاود الظهور كأن شيئًا لم يكن. ارتعدت لرؤيته فهو وإن لم يكن القاتل نفسه فهو بالتأكيد من المُخطِّطين.

مسحت أنفها بيدها ثم انهمر الكلام من فمها متدفقًا:

- لم يكن بمقدوري زيارة عائلة حميد لسؤالهم عن ابنهم فتوجهت إلى دار خالتي كنزة أم فريـال لأعزِّيها وأُحادثها، علَّني أعرف شيئًا. سبحان اللـه! لَكَمْ تبدلت بين عشيَّةٍ وضحاها، لقد هرمَتْ وكأنما حطَّ الزمان على عمرها عشر سنوات في أسبوع. لم تكن حالتها تسمح بالكلام، طلبت منها أن أدخل حجرة فريـال لأبحث عن كتاب لي كنت قد أقرضتها إيَّاه قبل الحادث، لم ترفض بل لم تُجِب أصلًا، فدخلت أبحث في أشيائها وخرجت من فوري بعد أن وجدت ضالَّتي؛ "صورة لحميد".

أراحت ظهرها للوراء كمن انتهى لتوِّه من إلقاء محاضرة دسمة. لاحظت خيبة الأمل على وجه محسن الذي كسته أمارات عدم الفهم. اقتربت لتهمس في أذنه:

- سنذهب بصورة حميد إلى الماروكية.

نظرت في وجهه ثانيةً ثم عادت لتهمس:

- الماروكية عرَّافة مغربيَّة، ستخبرنا عن مكان حميد إذا أعطيناها صورته.

- أحقًّا تصدقين مثل تلك الأشياء؟

حاول جاهدًا إخفاء امتعاضه في الجملة الأولى، إلا أنه ارتسم بوضوح على وجهه وهو يقول:

- لن نلجأ للمشعوذين يا فاطيما، لسنا مجبرين على سَبْر أغوار هذه القصة حتى نأتي مُحرَّمًا.

فتحت فاطيما فاها وقد كسا وجهَها حرجٌ كثيف، أدرك ساعتها محسن أنه قد أطلق رصاصة متسرعة على العلاقة الوحيدة الباقية له في الجزائر. تعيَّن عليه استدراك ما أتلفه فأضاف في تلعثم:

- لكنكِ على حق، يبدو أن هذا هو الخَيَار الوحيد أمامنا.

وضع مرفقيه على المنضدة ليقترب أكثر ثم استطرد:

- متى وكيف نذهب إليها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

يسمح له صباح الخميس بأن يتأخر قليلًا في الاستيقاظ. نهار مشمس تلطفه برودة خفيفة تليق بصباح العاصمة البيضاء. أخذ سيارته الرِّينُو وهبط بها في اتجاه البحر، فاليوم عطلة والطريق الساحلي ليس مزدحمًا. يفضل غالبًا طريق وسط المدينة إلَّا أنه يريد اليوم أن يهدئ من طنين رأسه الذي يرفض بشدة مشاركته فيما هو مقبل عليه.

نشأ عشق من طرف واحد طوال فترة إقامته بالجزائر بينه وبين بولوغين بكاتدرائيَّتها الحمراء، وهي تراقب في وقارٍ من الأعلى المنازل الصغيرة المتزاحمة على سفح الجبل حتى ساحل البحر.

باب الواد وعماراتها العتيقة على الطراز الأوروبي مستقبلة البحر، وكأنما تتجه نحو قبلتها الفرنسية على الضفة الأخرى من العملاق الأزرق، ما الغرابة في أن يتوق المبنى لمن أقامه؟

صفَّ سيارته بالقرب من البريد المركزي وترجَّل. اشترى جريدة الوطن ليضيع معها نصف الساعة المتبقي على موعد فاطيما. احتل إحدى المناضد المعدنية الصغيرة بخارج مقهى الميلك بار، فرد جريدته مُتصفِّحًا إيَّاها في انتظار قهوته. العنوان الرئيس: "ذبح ستة أفراد كانوا يسبحون في زرالدة على يد مُلْتحِين". خبر أكثر من عادي في أيامنا هذه، لماذا يحتل الصفحة الأولى؟ هل شاهد الناسُ الملتحين وهم يذبحون السابحين؟ ولماذا لم يوقفوهم إذن؟ وإن لم يشاهدهم أحد، فمَنِ الذي ألصق بهم صفة الالتحاء؟ لماذا لا نتساءل عن دور الشرطة في منع تلك الجرائم ونهتم فقط بلعن مرتكبيها؟

رأى فاطيما تقترب قادمةً من ناحية البحر. مرت بجوار تمثال الأمير عبد القادر، هل كُتب لها أن تقاوم العدو الجديد كما فعل صاحب النُّصب الشاهق مع المستعمر القديم؟.. هذا التمثال البرُنْزي الجميل لبطل ممتطيًا فرسه وشاهرًا سيفه، يمثل الأمير الذي قاد جيش إفريقيا في أوائل هذا القرن ضد المستعمر الفرنسي. وظلت المقاومة مشتعلةً من يومها حتى جاءت "زهرة ظريف" لتفجر نفس هذا المقهى الذي ينتظر عليه فاطيما "الميلك بار"، لتنتقل المعركة مع المحتل للأحياء الفرنسية بدلًا من الولايات المحيطة بالعاصمة. كان العدوُّ في زمن الأمير واضحًا جدًّا، فرنسي مُستعمِر يسهُل تمييزه بزيِّه العسكري وبشرته البيضاء. أما أنت يا فاطيما فيلزمك الذهاب للماروكية لتعرفي غريمك. كيف أعتب عليك اللجوء للسحر إذا كان عدوُّك اليوم يشبهك حد التطابق؟

أعطى الساقي قطعتين معدنيتين وضعهما شاكرًا في جيب مريلته السوداء النظيفة قبل أن يقوم لملاقاتها.

صعدا من ساحة أودان في نهج محمد الخامس، شارع ضخم سُمِّي تيمنًا باسم ملك المغرب السابق، لا تخلو عاصمة من عواصم شمال إفريقيا من طريقٍ يُخلِّده.

من بين كلِ شوارع الجزائر، اختارت الماروكية شارع محمد الخامس لتسكن فيه. هل نحن حقًا نهجر أوطاننا لننساها أم لنعيد بناءها حولنا كما نحب؟

خاب أمل محسن في شقة العرَّافة، فلا مبخرة كبيرة يتصاعد منها الدُّخَان ولا ترتدي المرأة ملابس غريبة أو قبعة الساحرات. فتحت لهما الباب بنفسها وأدخلتهما من دون حديث، امرأة ستينيَّة في جلَّابة زرقاء لا تميزها عن مثيلاتها إن رأيتها في السوق. جلسوا جميعًا في الصالون خافت الإضاءة، بدأت فاطيما الكلام:

- خالتي، نحن نبحث عن شخصٍ مختفٍ.

- أعلم ذلك.

ثم استطردت مبتسمةً لتخفف وطأة اندهاشهما:

- لا يمكنني أن أُدخل داري إلَّا من كان يحتاجني حقًّا. الإسلاميون يكرهون عملي وربما حاولوا إيذائي.

ثم التفتت إلى محسن قائلةً بمصريةٍ ركيكة:

- نوَّرتِنا، تقولونها هكذا في مصر؟

أعقبت جملتها بضحكةٍ قصيرةٍ اهتز معها شعرُها الأبيض الخفيف. ارتعد من نظرتها الباردة ومحادثته بلهجته من دون أن يفصح عن كونه مصريًّا. هي ليست دجَّالة مدعية كما ظن.

- هيا لن أضيِّع وقتكما.. معكما صورة الشخص أو قطعة من ملابسه؟

دفعت إليها فاطيما صورة حميد من دون أن تنبس؛ فألقت عليها نظرة غير فاحصة ثم أطالت الصمت. خرج صوتُها بعد ذلك منخفضًا وهي تقول في عبارات قصيرة:

- هذا الفتى في فرنسا، وليس هنا. حالته سيئة جدًّا. ترك البلد مُجبَرًا.

عادت للصمت ومدت الصورة ثانيةً لفاطيما التي حاولت أن تسأل عن المزيد فأجابتها:

- هذا كل ما أعرفه.

تعبيرات وجهها كانت آمرةً بما يكفي فلم تستطع فاطيما الاسترسال في الأسئلة.

قبل الخروج التفتت فاطيما لتسألها بصوتٍ خفيض:

- هل تستطيعين فك عمل القُفْل؟

- أيمكنك الإتيان به؟

- لا أعرف مكانه.

- نعم ممكن، لكنه سيكلفك خمسة آلاف.

- سآتيك لاحقًا إذن.

- فقط تحاشَيْ يوم السبت، فهو يوم عطلة مساعدي.

ينحدر نهج محمد الخامس هابطًا في اتجاه البحر، نزلا معه صامتَيْن كُلٌّ يعالج أفكارًا في رأسه، حتى وصلا ثانيةً لساحة أودان.. أدار رأسه ناحية اليمين ليلقي نظرةً فارغةً على مكتب مصر للطيران. أمسكت يده ليقطعا الطريق، تشابكت أصابعهما بالخطأ فانتشلته من أفكاره كيَدٍ من خلال الموج مُدَّت لغريق. أرادت سحب أصابعها لكن السيارات المسرعة كانت أوْلَى بالاهتمام.

تابعت شرودها في السيارة، ولم يُرِد أن يفاتحها في شكوكه في تورُّط حميد بمقتل فريـال، وإلا لاحتاج أن يخبرها عن خطابات المجهول. أنزلها بالقرب من حديقة الحما فليس من اللائق أن يُنزلها أمام بيتها أو أمام بيته. لم يسألها كيف سيلتقيان ثانيةً فهي تعرف أين تجده. فقط اكتفى بأن وضع يده مكان مقعدها بالسيارة ملتمسًا بقايا دفء خلّفته وانطلق بهدوء ناحية منزله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

تحمل الإجازة الصيفية ثقلين فوق كتفيها، هما: الوحدة وكبت الحظر. كنتم معي، وكنا نخرج قبل أن تتركوني هنا وحدي.

تلك السيارة العتيقة حملتنا معًا إلى تونس. كانت داليا صغيرة وكنت أنتِ سعيدة بالسفر. أدهشكِ تشابُه مدينة تونس العتيقة بساحة الشهداء. تندَّرنا بالطريق الصاعد إلى مسجد الزيتونة وكيف يبدو كأزقَّة القصبة التي تنتهي بقمةٍ تطلُّ ساكنةً على البحر.

اليوم لم يعُد الطريق لتونس آمنًا، كما استحال ارتياد القصبة التي عمَّرها اليوم الخوارج. لَكَمْ وقعت في غرامها، أبوابها الخشبية التي تخبئ وراءها ساحاتٍ فسيحة أحيانًا أو أحواشًا صغيرة الأسقف المزركشة وحوائط الفُسَيْفساء. دار عزيزة، القاعة التي لطم فيها الدَّاي مندوب فرنسا فاحتلوا الجزائر. مسجد كتشاوة الذي بناه العثمانيون وتحول لكنيسة وقت الاحتلال ثم عاد مسجدًا فور الاستقلال، الصناعات التقليدية المنتشرة في الطرقات، لا يلحُّ الباعة في استقطاب الزبائن، فكرامة الجزائري قبل الخبز وقبل الحياة.

تلك الرقعة التي استعصت على المستعمر الفرنسي واحتوت بين ظهرانيها المجاهدين، تمتنع اليوم عن الشرطة والجيش، بل وعلى أبنائها أيضًا؛ فالعدوُّ الذي يهاجمك تقاومه، أما من يتسلل إلى عقلك وقلبك فتستقبله مُرحِّبًا. هجرها الباعة والحرَفيون فسبحان مُغيِّر الأحوال!

لا ألومك على الرحيل فله أكثر من ألف سبب وجيه، فقط تمنيت لو كنت أصلح سببًا لبقائك هنا بدلًا من كوني سببَ رحيلك الأساسي.

لعن الله من كشف عن هذا البلد سلامه وترك أهله وقودًا لنار صراع سياسي قذر.

أحد مقالات جريدة الوطن اليوم بعنوان:

"مَن يدفع فاتورة الإرهاب؟"..

أي سخف هذا؟ بل قُلْ مَن لا يدفع يا رجل. ربما كنت أجبَن من أن تسأل عن المستفيد من هذه الفاتورة.

قطع حديثه مع نفسه جرس الباب، رحب بهذا الطارق قبل أن يسأل مَن هو، كيف لا وقد اجترَّ هذا الحوار الأحادي مراتٍ ومرات؟

لا أحد يفتح بابه لمجهولٍ هذه الأيام، قد يطرق بابك مَلَك الموت فاحرص على الأقل ألَّا تسهل مهمته لهذا الحد. حقًّا، لِمَ الإصرار على البقاء في بلد يأكل أبناءه؟

اقترب من الباب بحذر، أصدر الطارق صوتًا خفيضًا:

- أنا فاطيما يا أستاذ محسن.

فتح الباب مِضيافًا من دون تردد، لم يدرك أنه مُرتدٍ جلبابًا منزليًّا باهتًا ويقف حافي القدمين إلا عندما توسطت غرفة الجلوس. أجلسها وجلس، فكر أن يستأذن ليغير ملابسه ولكنه آثر ألَّا يتركها للحظة، فقد أوشكت الوحدة على الفتك به. بدأ الحوار مُرحِّبًا:

- سعيدٌ لرؤياكِ، كيف عرفتِ العنوان؟

- أعرفه بالتقريب منذ أيام المدرسة.

ثم أضافت وهي تجمع شَعْرها خلف أذنيها:

- سؤال واحد لتاجر البقالة كان كافيًا لتحديد المبنى والشقة.

بهت وجهه قليلًا، تفكَّر فيما سيظنه البقال بعد أن عرف بتلك الزيارة. أردفت مستدركة:

- سألت عن دار داليا ابنة الأستاذ.

هشَّ وجهه ثانية قبل أن يسألها عمَّا تشرب.

- لم آتِ لأشرب بل لأخبرك بكل ما أعرف، لن أُطيل صدقني.

جلس محسن بالقرب منها مستفهمًا عمَّا حاك في صدرها. تلطَّف قائلًا:

- ليكن ما تشائين، أسمعك ثم نشرب.

- هناك شيء لم أخبرك به من قبل، لم أتعمد إخفاءه، فقط لم أُرِدْ هتكَ سرِّ صديقة مُتوفَّاة.

ابتلعت ريقها وأطرقت لوهلةٍ قبل أن تستطرد:

- قبل مقتلها، أقنعت فريـال حميد بأنها حُبْلَى، كانت تكذب، لكنها كانت تحاول أن تعجل بالزواج...

- فعجَّلت بمَنيتها. (قاطعها محسن شاردًا).

- لست واثقةً من ذلك، لكن ما قالته الماروكية واختفاء حميد وقتلها في تيارت وتسلُّم جثتها هنا.. لا نستطيع تجميع خيوط هذا اللغز. فكرت ربما ساعدت هذه النقطة.

سكت محسن فهو لا يعرف أيصارحها بما يعتقد أم أن الصمت أفضل.

- أحتاج لقهوة للتفكير، أتشربين؟

بدت أهدأ كثيرًا بعد أن أفرغت ما في جَعْبتها. ألقت ظهرها على مسند الأريكة وهزت رأسها موافقة.

ودَّ لو طالت هذه الجلسة للأبد. فرشت الشمس مستطيلًا كبيرًا تحت مكتبة التلفاز، رسم ظل حديد الشباك فيه نقوشه فسكبت قُدسيةً ما على الغرفة. تناغم الجو مع جلستها المستريحة على الأريكة بساقيها الممتدتين أمامها ويدها الملقاة على المسند

ودائرة العَرَق الصغيرة التي امتصَّها القميص من إبطها، وشعرها الذي كفت عن تسويته بيدها كلما نفر. فكما يحلو الهندام أحيانًا، تمنحنا العفوية مدخلًا للقلوب، ربما لهذا السبب عشق بعض الرجال حفاء النساء وكره آخرون مساحيق التجميل.

- لماذا إذن تظنين أن قصة الحمل تتعلق بمقتل فريـال؟

- لا علاقة لها بالقتل، لكنها ربما كانت سبب سفر حميد المفاجئ. أريد أن أفهم سرَّ ذهابها لسيدي العنتري. أرى أن نذهب ثانيةً للماروكية لنسألها.

- أما كانت لتعرف من دون أن نخبرها؟

- نحاول...

تفرَّسها بنظرةٍ تشي بشكِّه في جدوى الفكرة.

أردفت في استسلام متردد:

- أريد أن أذهب لاستشارتها في أمرٍ آخر لكني أخافها حقًّا. لنَقُل إني أحتاج مساعدتك.

للمرة الثانية تضعه في هذا المأزق، يرفض إتيان العرَّافين ويخشى صدَّها إذ تلجأ اليه. أطال الحديث سائلًا:

- أخبرتنا أن نتحاشى أي يوم؟

- السبت طبعًا، مساعدها لا يعمل بالسبت.

- لم نَرَ عندها أحدًا.

- ولن تراه، مساعدها جنِّي يهودي يلتزم بالسبت فلا تعمل هي بالتبعية.

سرَتْ فيه رِعْدَة خفيفة خليطٌ من الامتعاض والإحساس بالذنب، والخوف أيضًا، بيدَ أنه لا يملك رَفاهية التردد؛ فوافق على الفور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21

وقفت باهية أمام المرآة لتلقي النظرة العاشرة والأخيرة على هندامها. منَابِت الشعر مصبوغة بعناية، زرُّ القميص الثالث يعمل بكفاءة، وَقُور إذ أُغلق، وكاشف إذا انفتح. تنُّورتها بحذاء الركبة تمامًا، لا تُظهر غير نصفها. هكذا قالت آمنة عاملة الحمَّام وها هي تنفذ.

منذ وَطئِت مولانبيك وهي تقضي راحة الظهيرة في البحث عن عمل. المطعم لا يوفر سوى المبيت والطعام لكن خطتها أكثر طموحًا، فيومًا ما ستستقدم بناتها وهذا يحتاج مالًا وسكنًا مستقلًّا.

العرب لا يتعاونون في الغربة، أو ربما حقًّا لا مكان لها لديهم. لم تُفلح محاولاتها مع ريما حلَّاقة النساء، كما صدها القائمون على قاعة أفراح نسيمة حتى لم يتبقَّ أمامها سوى حمام لقمان القائم بجوار المسجد. توددت إلى عاملاته، أجزلت لهن العطاء بلا طائل. لم يرقَّ لحالها سواها، كلهن مغربيات حقًّا لكن لآمنة أصول جزائرية من ناحية الأم الَتي أتت قديمًا من وهران. أبوها من شرق المغرب، تزوَّج بأمها وعاشا في بِرْكان. لهجتها أقرب من الأخريات للدَّارِجة الجزائرية، تعشق الحديث مع باهية لأنه يُذكِّرها بلكنة أمِّها وخالاتها التي لا تَبعد كثيرًا عن لهجة الشرق المغربي. وعدتها بإيجاد عمل خفيف لها لتبدأ في جمع المال، وبعد أيام أتتها لتفي بما وعدت.

- السيد چان مارك يريد تقليم أظفاره في المنزل.

- فليُقلِّمها إذن، ما شأني بذلك؟

- افهمي! هذا الشيخ الفاني قضى جيشه في تلمسان، ولسببٍ ما يحنُّ لتلك الحقبة إلى يومنا هذا.

لم يبدُ على وجه باهية أي تعبير مفيد فأضافت:

- لن تفعلي شيئًا صدقيني. فقط ستذهبين لهذا العنوان، لديه أدواته ولن يكلفك فرنكًا واحدًا. ستجدين أظفاره تبرق من نظافتها، فقط تبردين قليلًا أو تقلمين ثم تغادرين كما ذهبتِ.

- وكم سيدفع في هذه المهمة التافهة؟

أشرق وجه آمنة وهي تقول بحماسة:

- خمسمائة فرنك.

تفكَّرت باهية قليلًا: "المبلغ ليس خياليًّا في الواقع، لكنه أضعاف ما تستحقه الخدمة المقدمة. ربما تُخادعني تلك المغربية، أو أن هناك ما أجهله".

- ماذا عليَّ أن أفعل تحديدًا؟

- مثل ما قلت لكِ بالضبط، فقط تلطفي في معاملته هو شيخ قد تجاوز السبعين من عمره.

زال عنها تردُّدها وهي تستفيض شارحةً:

- مثلًا لو ارتديتِ تنُّورة عند الركبة، وتدلَّت من سلسلتك كف الخمسة، ماذا بك لو جلستِ على الأرض عند قدميه، خالعةً نعليك فهو يحب النظر لأقدام النساء. حبَّذا لو تمتمتِ بأغنيةٍ قديمةٍ أثناء التقليم... ذكرياته فقط هي ما عليك إيقاظها، فقط ذكرياته صدقيني.

- فقط ما قلتِ؟

- أقسم باللـه هذا كل ما في الأمر.. شيء أخير: سينقُدكِ الفرنكات بين نهديك، أبقِي قميصك مفتوحًا قليلًا.

ألقت تلك الجملة قبل أن تتصرف مسرعة. لقد قبلت باهية كل هذه الشروط، لن تعترض على هذا الشرط الصغير.

لم تكذب آمنة، تم الأمر كما قالت تمامًا. لم يتجاوز السيد چان مارك حدوده مطلقًا. ربما لأنها المرة الأولى ويخاف أن يُفزعني؟ يبدو لطيفًا على كل حال، كما تبدو الفكرة برُمَّتها مصدرَ دخلٍ مقبولًا مبدئيًّا.

هكذا حدثت نفسها وهي عائدة من مهمتها المنجزة. أخذت تحسب، فلو عادته مرة واحدة في الأسبوع لما كفاها هذا المال لتترك المطعم وتستأجر سكنًا. ولو مرتين في الأسبوع أيضًا لما كفى. هل يقلم هذا الرجل أظفاره مرتين في الأسبوع؟

لم تدخل الشارع مباشرةً بل انعطفت يمينًا في اتجاه الحمام. الساعة لا تزال قبل العاشرة، المطعم لم يغلق أبوابه وزهرة مع خالتها تبيع الأزهار في الصالة أو تغير الموسيقى. تقف اليوم أختها مكانها في المطبخ، لم يَحتَجْ إقناعها وقتًا فهي أيضًا تريد لباهية الاستقرار حتى تجد لها سكنًا منفصلًا. لم تخبرها بماهية العمل، قالت إنها ستساهم في تزيين عروس جزائرية، غير أن نعيمة لم يبدُ عليها الاهتمام بمعرفة نوع النشاط، طالما ستتخلص من اعتراض حسن المستمر على بقائها معهم.

تركت باب المسجد على يمينها ودارت حول السور، قبل باب الحمام وجدت آمنة جالسةً على الدكة الرخامية تدخن سيجارة. نحيفة سمراء، تعقد شعرها دائمًا فوق رأسها كأغلب عاملات الحمَّام. ترتدي مثلهن معطفًا أبيض فوق ملابس الحمام الضيقة مكشوفة الذراعين عندما تكون بالخارج.

عاجَلتها آمنة مبتسمةً:

- لم أخدعك، تم الأمر كما أخبرتك تمامًا. أليس كذلك؟

- حاشاك، لست بمخادعة. أنت كأختي بل أكثر.

ترددت قليلًا قبل أن تردف:

- كم مرة سيحتاجني هذا الرجل أن أذهب إليه؟

- ألم يخبرك بالميعاد القادم؟

- فقط سألني إن كنت أملك جلَّابة وبُلَيْغة.

- إذن يريدك ثانية.

- أتمنى.. (قالتها في شرود).

- ماذا؟

- لا شيء، فقط لم تكن هذه أحلامي وأنا أخطط للمجيء.

- وهل كنت أحلم أنا بمهنة التكييس؟ احمدي اللـه على ما رزقنا وكفَى. فِيمَ نصلح باهية؟ أجيبيني.. أختك وزوجها من قَدامَى المهاجرين، أتوا في زمن الخير. ومع ذلك وحده اللـه يعلم ما لاقوا ليفتحوا عملهم الخاص. اليوم وقد صارت مولانبيك ولاية عربية، ماذا يمكننا أن نعمل فيها؟

استدارت عائدةً نحو الدار، سارت على مهلٍ فليس هناك ما يدعو للعجلة.

لم تخبر آمنة بأن چـان مارك أسماها عروس البحر لمَّا علم أنها تعمل بالمطعم. كانت جالسة عند قدميه، تبرد أظفار يده اليسرى عندما خلَّل أصابع يُمناه في شعرها وأراح رأسه على المقعد ناظرًا للسقف. أكان يحدثها أم يحدث نفسه وهو يقول:

- المرأة التي تجيد الطهو واللهو تستحق لقب حورية البحر. لم يعشقها الرجال لجمال وجهها بل أسرهم تكوينها البديع. فنصفها العلوي لامرأة ونصفها السفلي سمكة، أي طعام. حقًّا ما اجتمع الطهو واللهو في أنثى إلا وكانت حلم الرجال. آمنة مُحقَّة، ماذا يمكننا أن نفعل هنا غير دور عروس البحر؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22

الموت حق، لا يختلف على هذا ملحد أو مؤمن. أي أن من مات على يدك لم يستقدم ساعته ولم يستأخرها فهو ميت لا محالة، فقط تُرهبك حقيقة أنك قاتله. ما يُذهب روعك حقًّا ويخدر ضميرك هو يقينك بأن "لكُلِّ أجلٍ كتاب"، أنت فقط تضع نقطة النهاية في آخر السطر الذي لم تُسطِّره.. هذا ما استقر إليه يقيني أو قُلْ ما أراحني اعتقاده، كيف لا وهو حق؟

كلمة الحرب المقدسة وحدها تكفي لأن تنتزع كل شك من قلبك فتقتل بلا هوادة، بيدَ أنها في واقعها طِلَّسْم يفهمه كلٌ بطريقته. فحربنا مقدسة لأنها على الإرهاب، وحربهم مقدسة لأنها على الطاغوت الذي نمثله. ما الجديد هنا؟ وهل قامت حرب إلا وكان طرفاها على حق في اعتقادهم؟ وكلما اشتدت وطالت تُنسِيك فِيمَ نشبت، فالكل مُثخَن ومكلوم ما عاد أحد يفكر لِمَ بدأنا، فالمهم هو ألَّا نتوقف. ثور ضخم أعمى يدفع ساقية الدماء بلا هوادة، من يجرؤ أن يوقفه؟

مثل تلك الأفكار صارت تعاودني منذ أن لزمت الفراش. كُسرت ساقي في إحدى الحملات وبعد تجبيرها أمرني الطبيب بالتزام الدار لستة أسابيع، أسماها استراحة محارب.

لم تستوقفني عدالة قضية الإسلاميين، فلقد رأيت منهم ما رأيت ولا أُشفق على أحدٍ منهم، وإن عدت لأقتلنَّ منهم أضعاف مَنْ قتلت. ما يريبني حقًّا هو ما نفعله نحن، رقدة السرير أعادت لرأسي بعض المشاهد التي لم أرتَحْ إليها عندما عايشتها. لكن في خضمِّ الأحداث يكون رأسك ساخنًا ولا ترى، تعميك عدالة القضية والثقة في القادة.

دول عربية أخرى كانت تستضيف قادة دول الجوار وترسل لهم المذيعات والفنانات لتسليتهم، ودائمًا ما ينتهي الأمر بتسجيلات يخضع على إثرها الضيف للابتزاز. تُرى، لأي مدًى يستطيع أن يسحبنا حب الوطن؟

أنهيت كتابة مقدمة اعترافاتي، كنت اعتزمت تدوين ما يُريبني منذ مذبحة بن طلحة، ولكن لم يسعفني الوقت فاكتفيت بخطابات قصيرة لأستاذي القديم: محسن المصري. تلقى مني حتى اليوم خطابين ولم يشي بي. أعلم أنه لا يعرف من أنا، لكنه إن ذهب بأي الخطابين للأمن لربطوا من فورهم بين طلابه والضباط، ولكنت الآن بالسجن الحربي في سركاجي. الآن وقد أصبحت أملك وقتي كاملًا ولستة أسابيع، أصبح لزامًا عليَّ أن أبدأ.

يومًا ما سينتهي كل هذا وسأذهب إليه غيرَ مُتخفٍّ لأعرض عليه ما كتبت، ليراجع معي الإملاء والقواعد. حتى تخرج اعترافاتي مكتوبة، لن أُطلِع أحدًا على ما أكتبه، ليس خوفًا.. لكن من سيصدق ما أسرد عن هذا الچنرال أو ذاك؟ سيموت مشروعي من الإحباط قبل أن يبدأ، وهي شهادة للتاريخ يجب أن أحافظ عليها كما أقسمت على حماية الوطن.

بسم اللـه نبدأ:

لم أشهد في حياتي إحساسًا أقسى من العجز، كأن تُساق إلى قدَر محتوم تشاهد ما يحدث لك ولا تقوى على فعل شيء.. أي شيء.

"نحن هنا جميعًا نقف صفًّا في انتظار دورنا في الموت".

قالها لي أشعث بن طلحة. لا أحب أن أسميه هكذا لكني لا أعرف له اسمًا. كلما تفكَّرتُ في تلك الحقيقة تستغرقني أكثر، فعلى من تعود "نحن" تلك؟ هل هو يقصد القرويين الذين يحصدهم الإرهاب؟ أم تشمل الإرهابيين الذين نحصدهم نحن الجنود؟ هل تتسع أكثر لتشمل الجنود الذين يقتلهم الإرهابيون؟

بالنظر لتلك الجملة متأملًا ترى البلد فيها مثلثًا متساوي الأضلاع، يقف على رؤوسه الثلاثة بالتساوي المواطنون والدولة والإرهابيون. ينظر كل طرف إلى الطرفين الآخرين بعداء، قد يبدو عداء الدولة والإرهاب طبيعيًّا، فماذا عن المواطنين؟ يبغضهم الإرهاب ويحسبهم مع الدولة فيُكفِّرونهم. وينكرهم نحن لزعمنا أنهم يأوون المجرمين. ويكرهوننا لفشلنا في حمايتهم. يمتد الكُرْه لسنوات، يتحول المثلث إلى دائرة يدور فيها الجميع كارهًا مَن خلفه ومَن أمامه. يسهم الكل في دورانها، نزيد من سرعتها فنزداد بغضًا لبعضنا البعض. نجلد أنفسنا، الكل متواطئ إلَّا من رحم ربي.

أنظر عن يساري، أجد في المركز حفنة من القادة، ليسوا في محيط الدائرة المزدحم بنا، لا يدورون معنا، لا يحبون ولا يكرهون فقط يضبطون إيقاع الدوران.

تتحول الدائرة إلى ساقية عملاقة تدور من تلقاء نفسها فتغرق الأرض ريًّا بالدماء. تطرح الأرض أشجارًا ضخمة تثمر سبائك ذهبية يحصدها قادة مركز الدائرة وحدهم لا شريك لهم.

هل تقوى على إيقاف تلك الدائرة الثائرة العمياء؟ لا أحد يقدر.

حقًّا لم أشهد في حياتي إحساسًا أقسى من العجز، كأَنْ تُساق إلى قدَرٍ محتوم تشاهد ما يحدث لك ولا تقوَى على فعل شيء، أي شيء.

كم كان دقيقًا أشعث بن طلحة عندما قال إننا جميعًا نقف صفًّا في انتظار دورنا في الموت. فقط لم يكن يعلم أن الصف استحال دائرةً عملاقةً ليس إلى الخروج منها من سبيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

23

اليوم الثلاثاء، ستأتي فاطيما لنذهب معًا إلى الماروكية. سأحاول إثناءها عن الذهاب إلا لو أصرَّت.

ذهبت بالأمس إلى السوق لأبتاع مُكوِّنات صينية بطاطس وأرز بالشعرية، سأطهو شيئًا مصريًّا علَّي أفلح في إبقائها للغداء معي. لم أَطْهُ تقريبًا منذ رحلت سناء. تمر الأيام رتيبةً ثقيلةً لكني حتى لا أقتل مللها في المطبخ.

شعوري بأن هناك مَن سيشاركني الطعام اليوم جعلني سعيدًا بوقوفي أمام النار. حرصت على أن أسلق اللحم قبل وضعه في البطاطس ليصبح ناعمًا سهل المضغ. نظفت الصالة وأشعلت عود بَخُور لتعطيرها قليلًا.

دق جرس الباب بينما الأرز ما زال يتشرب. لم تبلغ الساعة العاشرة والنصف صباحًا، لقد غلبني الحماس فبدأت مع الثامنة. لا شك أنني الآن أبدو في غاية الحمق.

خلعت نعليها لكي تُبقي منزلي نظيفًا، فعلتها بحكم العادة فبدت كأنها في بيتها. فليرحمنا اللـه، أنا بعمر أبيها ما بالي أنسى دائمًا؟

ترددت قبل أن تجلس:

- أمشغولٌ أنت أم على موعدنا؟

- سنذهب للماروكية كما اتفقنا. أتحبين الآن أم بعد الغداء؟

هكذا ألقاها ليصبح الغداء أمرًا واقعًا. ابتسمت فجلست، فاطمأن وأضاف:

- كما تحبين. لكن لو بدأنا بالماروكية ستعودين معي. لن أستطيع أكل كل هذا وحدي. (أردف ضاحكًا).

- كلفتَ نفسك كثيرًا، أثقلت عليك بطلباتي ثم هأَنْت تعدُّ لي طعامًا. هذا واجب علينا يا أستاذنا.

- لو أكلتِ معي لوفرتِ لي الكثير من المال.

بدا وجهها مستفسرًا عن معنى تلك العبارة الغريبة، أكمل قائلًا:

- سأستودعك أحد أسراري فتفهمين مقصدي. فقط يلزمني بضع دقائق بالمطبخ لأُنهي ما بدأته.

- أتحتاج مساعدة؟

- استريحي فأنت ضيفتي (ثم استدرك قائلًا:) إلا لو أردتِ إعداد شاي لنا حتى أفرغ من الطهو.

حضورها الآسر ضرب فقاعة بينهما وبين ما حولهما. لم يعُد يرى البخار المتصاعد من حلَّة الأرز ولا يشم رائحة الفرن المتصاعدة، أذناه صُمَّتا عن قطرات تتساقط في

إيقاع بطيء من الصنبور لتصطدم بأوانٍ متسخة بالحوض. ليس هناك سواها، تغلي الماء وتعاين أوراق الشاي بيدها قبل إنزالها في الإبريق. تدور حافية نحو الحوض لتسكب الماء قبل أن تعاود غليه، تأخذ أغصان النعناع الأخضر من كوبه الممتلئ بالماء لنصفه حتى لا يذبل. سألته: "أين السُّكَّر؟" أخرجه السؤال من أفكاره ليسحب علبة بلاستيكية قديمة من فوق رفّ صغير، ثم يطفئ النيران معلنًا أن الطعام أصبح جاهزًا.

- لو كنت أعرف أنك ستتكلف لزيارتي لما أتيت. (قالت مجاملةً وهي تأكل).

- إطلاقًا، فقد اشتقت لطعامي ولكن لمن أطهو؟

عبث بالشوكة في صحنه قبل أن يردف:

- لا تتخيلي قسوة الأكل وحيدة يوميًّا. أتعرفين؟ بعض الأوقات لا آكل رغم جوعي. أشكرك على إنقاذي من الوحدة اليوم، (أضاف مبتسمًا)، بالأسبوع الماضي قررت أن أكسر عزلتي، ارتديتُ بذلةً أنيقةً وتوجهت إلى مطعم الجنينة. كنت جائعًا جدًّا، طرقت الباب ودخلت فعلًا، كانت الصالة مزدحمة نسبيًّا والساقي في قمة أناقته يدور على الموائد، يصبُّ النبيذ في كؤوس الجميلات عاريات الأكتاف ويشعل لِفافات تبغ السادة في حُلَلهم الدكناء. تخرج من المطبخ أوانٍ معدنية وطواجن تُسيل لُعاب الشبعان، فما بالك بالجائع مثلي؟ خزينة مغلقة تعزل من بداخلها عن الواقع بالخارج. لولا بقايا من كدر خفيّ يستتر خلف الابتسامات، لما شعرت أني ببلد يأكل الإرهاب أبناءه وموارده. ورغم دفء المكان ورغم جوعي فإنني لم أستطع الجلوس وغادرت، زادت ألفة الجالسين من وحدتي، كيف آكل وحيدًا وكل الموائد حولي عامرة؟.. خرجتُ أبحث عن مطعم أكثر بؤسًا يليق بحالتي، عبرت الطريق متجهًا صوب متحف الباردو، قابلتني امرأة تقف وحيدةً على الرصيف لا يبدو عليها أنها تنتظر أحدًا، بدت جميلة من بعيد إلا أنها كانت تزداد قبحًا مع كل خطوة تقرِّبني منها. لم تستنكف نظراتي المُطوَّلة إليها، لم أكن أتغزَّل فيها بيدَ أني أردت أن أعلق بصري على إنسانٍ بعد أن مللتُ النظر إلى الفراغ. اتجهت نحوي وبادرتني بالحديث، لم أفهم في البداية ثم عرفت أنها بَغيٌّ محترفة دائمًا ما تنتظر زبائنها في هذا المكان. تخيلي؟ لم آنف من عملها، لم أنتفض من ذنوبها، فقط أنست لحوارها رغم علمي بمَنْ تكون.

وضع شوكته على المنضدة ليسترسل:

- لم أُرِد سوى الحديث، اللعنة.. تمر أيام من دون نطق. شرحت لها أني لا أعاني سوى الوحدة، دعوتها لتتناول معي الطعام، فقط الطعام وعلى نفقتي بيدَ أنها أصرت أن تتقاضى أجرة كاملة. قالت: "لك عندي ساعة تقضيها كما تشاء، فإن شئت ذهبنا لمنزلك أو إلى الفندق فهذا شأنك". لم أُطِل في مساومتها خشيةَ أن يراني أحد تلامذتي فيظن بي الظنون. عدت أدراجي نحو المطعم مصطحبًا إيَّاها، أخبرتني في الطريق باسمها، كان مستعارًا بالقطع فمن غير المعقول أن تُسمَّى بـ "مادونا".

- ماذا!

اكتسى وجه فاطيما بأمارات الذهول كأنما رأت شبحًا. ثم انفجرت ضاحكة:

- لا تقُلْ لي أنك تناولت العشاء في مطعم الجنينة مع مادونا.

- أتعرفينها؟

- ومن لا يعرفها؟ الوزير الأول يتغير ومادونا تبقى مادونا.

أكمل ضاحكًا:

- كان العشاء مهزلةً بكل المقاييس، طلبَتْ نبيذًا ورفضتُ أن أدفع ثمن خمر. فاعترضت بأني أجالس زانيةً وأخشى ذنب شاريها. ثم صرحت أكثر من مرة بأن فندق سان جورج قريب وحجراته نظيفة وسيعطوننا خصمًا على الغرفة. وبقيت أمتنع وهي تعرض مزاياها فيحمرُّ وجهي خجلًا ولا يندَى لها جبين. لو عرفت أنك مصري لربما منحتك خصمًا خاصًا.

- اكتفيت بهذا القدر من الفضائح، ما كان ينقصني أن أخبرها أكثر عني.

- أتمنى ألَّا تعاني هكذا مع كل وجبة.

- لا تقطعي زياراتك لي إذن. (قالها برجاء صادق).

لم تكن زيارتهما الثانية للماروكية كالأولى بحال. عجز عن الجلوس مرتاحًا لتصوُّر وجود جنِّي يهودي بالمنزل، ربما كان جالسًا بجواره الآن، أو يحلق فوق رأسه بيدَ أنه نسي ما يُقلقه عندما شرعت الماروكية في الحديث.

أمسكت بصورة فريال من دون التفرُّس فيها، ثم حملقت في السقف قليلًا قبل أن تشرع في القَصّ:

- مسكينةٌ هذه الجميلة، لقد ماتت مقتولة. قاتلها رجل أطلق عليها الرصاص بمكان قريب من البحر.

قاطعتها فاطيما قائلة:

- بل قُتلت بالغرب في مذبحة تيارت.

- قُتلت وحيدةً في الليل، بالقرب من البحر، قريب من هنا. قريب جدًّا... لا تتكلمي ثانيةً حتى أنتهي.

بدا على وجه الماروكية أنها تقرأ رواية صادمة، إلا أنها أنهت كلامها فجأةً من دون زيادة قائلة:

- لا أرى أكثر مما قلت.

لم تجادل فاطيما رغم اندهاشها البادي لقطع السرد، كان واضحًا لها أنها تعرف أكثر لكنها لا تملك ترف الاسترسال. لم تحاول معها أن تخبر بالمزيد بل بحثت في حقيبتها عن مبلغ من المال أعطته إيَّاها، ثم تحدثت معها بالفرنسية كيلا يفهم محسن.

لم يتعلم الفرنسية رغم طول بقائه هنا. قال كاتب يس ([12]): "اللغة الفرنسية غنيمة حرب"، لم يحضر الحرب ولذا لم يغنَم مع الغانمين.

تذكَّر أوائل أيامه بالجزائر وكيف لم يكن يفهم كلمة مما يُقال أمامه.

تقول التوراة إن اللـه أنزل اللغات كلعنةٍ على عمال كُثر بالعراق كيلا يتفاهموا. كانوا يبنون برج بابل ليصلوا به إلى السماء. فعندما أراد اللـه وقف هذا البناء ضربهم باختلاف ألسنتهم حتى لم يفهم بعضهم بعضًا فلم يكتمل الصرح. هل حدث ذلك فعلًا؟ لا يدري. لربما فعل اللـه هذا حقًّا بالعرب فأصابهم باللهجات. لماذا أفكر في التوراة الآن؟ سَرَتْ في ظهره رِعْدَة إذ ظن أن مساعد الماروكية اليهودي هو من وسوس له بتلك الفكرة.

لا يتحدث الفرنسية لكنه يعلم لِمَ أتت فاطيما وفيمَ تتحدث. سألتها في المرة السابقة إن كانت تُبطل عمل القُفْل، واليوم أتتها بالمال، لماذا يُقلقه هذا بشدة؟

بعض النسوة إن وُلِدن لهن فتاةٌ يقمن بسحر فَرْجها بعمل على قُفْل حديد، تغلقه المشعوذة على قطرات من دم الرضيعة فيظل فَرْجها منيعًا لا يقوى عليه رجل. حتى إذا حان عرسها فتحت الأم القفل المخبأ بعناية فيُبطل العمل. اليوم وقد هربت أمها، تبحث فاطيما عمَّن يُبطل العمل من دون الحاجة إلى القفل الذي لا تعرف مكانه بالطبع. لا يمكن أن تسأل أمها أيضًا أين خبأته، يمكنها أن تفعل هذا فقط قبل عُرْسها بأيام لا غير.

لم يؤمن يومًا بتلك الخرافة غير أن فضوله يقتله، لماذا تريد أن تدك حصنها اليوم؟ هل من فارسٍ في الأفق؟ والأمر من هذا السؤال، لماذا يعبأ وهي ليست ابنته؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

24

اعتادت باهية زيارة حمَّام لقمان. كلما دخلته تذكَّرت يوم أرادت العمل به في التدليك أو التكييس أو نقش الحنَّاء أو إزالة الشعر أو حتى كعاملة نظافة. اليوم هي عميلة أسبوعية من كبار الزوَّار، تحافظ جيدًا على ما تبقَّى من جمالها الموشك على المَغِيب. تسخو على آمنة في الإكرامية، وكيف لا وهي من فتحت باب المغارة التي تغترف منها الفرنكات اغترافًا. لا ترتكب إثمًا، أو هكذا تحدث نفسها دومًا. فقط ترتدي جلَّابة زاهية وبُلغَة لامعة وتذهب لأحد هؤلاء العجائز الذين قضوا جزءًا من شبابهم في البلاد. تقلِّم أظفار هذا أو تكبِّس ظهر ذاك. لا يقوى أحد منهم على التجاوز معها، لا يرجع ذلك إلى قوة شكيمتها أو إلى قيَم تحافظ عليها من السقوط، بل لأن أحدهم لا يقوَى حرفيًّا على أكثر من قرصة هنا أو نظرة مختلسة هناك.

اليوم تعتني بقدميها جيدًا، فالسيد چون لوك يطلب منها أن تكبس له ظهره بهما. الأسبوع الماضي سألها أن تقف بجوار جسده الممدد على ظهره وتدلك صدره برفق بإحدى قدميها. تمنَّعت ضاحكةً بعد أن وعدته بأن تفعلها في المرة المقبلة، أي اليوم. تعلَّمت من شهرزاد أن تُبقي دائمًا في جَعْبتها ما يحدو للانتظار. خططت جيدًا أين ستقف، ستستخدم قدمها القريبة لتدلك بها الجزء البعيد من صدره، سترفع جلَّابتها قليلًا لتتمكن من الحركة، بالأحرى ليتمكن هو من اختلاس نظراتٍ أطول وأعمق، هكذا تهطل الفرنكات.

يتعيَّن عليها جمع أكبر قدر ممكن من الزبائن قبل اقتراب العام الدراسي. يجب ألَّا تعتمد على دخل زهرة من بيع الورد، رغم أن دخلها الآن في ازدياد مقلق فإنها اختارت ألا تفكر في هذا مؤقتًا، حتى تتمكن وحدها من دفع إيجار الغرفة التي انتقلتا إليها بعد ترك العمل في مطعم أختها.

تعلم جيدًا أن ابنتها تنقل علبًا صغيرة من محلٍّ لآخر بداخل الحي، كما تعلم يقينًا ما يقبع بداخل تلك العلب الصغيرة، فلن يدفع خالد تلك المبالغ إلا لتوزيع الحشيش على زبائنه. تُحدِّث نفسها دائمًا:

"لن تمسك الشرطة بطفلة تبيع الورد؛ خاصةً في مولانبيك".

وصلت في الموعد، التأخر يُذكي الشوق قطعًا، لكن الانضباط أضمَن لإبقاء العميل البلچيكي سعيدًا بالخدمة.

دخلت المطبخ، أعدت له كوبًا من الـ□ار □ان الساخن ليساعده على الاسترخاء، فإن لم تدرك دور حورية البحر كاملًا عليها أن تلحق ولو بأذياله. دخلت حجرته لتجده مستلقيًا على سريره في انتظار تدليكها الموعود.

لم تدَّخر جَهْدًا في تدليك صدره وأكتافه بقدميها كما أراد. عيناه لم تغفلا لحظة عما جادت به من رفع الجلابة إلا أنه لم يكتفِ بما رأى فبدأت أنامله تتحسس كاحلها الراسخ بجوار كتفه. فلما لم تفزع، شرعت يده في صعود بطيء. دارت بجسدها مستقبلةً وجهه بظهرها، أرادت أن تطمئن لرقدة ثعبانه قبل أن تترك يداه تعبثان

بساقيها الفساد. ألقت نظرة خاطفة على سروالـه، فلما استيقنت من وفاة من تخشى نهضته باعدت بين ساقيها قليلًا لتمنحه مشهدًا آخر علَّه يزيد على أثره من أجرتها اليوم.

شعرت بيده تتسلُّ تحت وسادته لتبحث عن بعض الفرنكات، ثنت ركبتها قليلًا لتنفحه منظرًا أوضح وبالغت في الانهماك في التدليك. لم تتوقف حتى انسلت يده في سروالها الداخلي تاركةً رزمةً صغيرةً مطوية، أعقبها بضربة خفيفة على ردفها معلنًا رضاه عن الخدمة.

دخلت المطبخ قبل أن تضع معطفها استعدادًا للانصراف. خطفت الفرنكات من ملابسها لتحصيَها، ما خاب أملها فيما بذلت من جهد وتنازلات. مدت بصرها لتحسب ما ستجمع حتى اقتراب الدراسة من عملها الجديد، اعتراها بعض الرضا قبل أن ترفع رأسها للسماء داعيةً ربَّها ليبارك في تجارة خالد وأن يقيَه شرَّ مباحث المخدرات. كررت لنفسها أنها لا تخشى وقوع زهرة في أيديهم فهي طفلة لا تفهم ما تفعل، كل ما تحلم به هو استمرار رواج تجارته حتى تجمع من المال ما يكفي. حسبُهما الآن الكراء والطعام، أما حلم استقدام فاطي ولامو فقد أصبح أوْهَن من السراب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

25

نزلا من عند الماروكية كلٌّ في فقاعته. عصف كلامها بعقل فاطيما عصفًا. تنزل كل جملة على مسامعها لتقتلع حقائق كانت مزروعة في عقلها وتجري منه مجرى اليقين.

شرودها لم يَزِد على شرود محسن وإن اختلفت أسبابهما، فالمرأة تعرف حقًّا؛ أي أنها فعلًا متصلة بقوةٍ ما. هل أبلغها جِنيُّها اليهودي بما تبلغه الرسائل المجهولة؟ هل تكون الماروكية هي من تراسله سرًّا؟ الآن وقد أمسكت فاطيما بطرف خيط، هل يقصُّ عليها قصته؟ هل يشرح لها ما أوحت به الخطابات عن دور الجيش المزدوج؟ يكره أن يراها على ضلال لكن خطورة الإفشاء ترعبه أكثر.

لو صدقت الماروكية، فمن قاتِلُ فريـال إذن؟ ربما تكذب خوفًا من الإرهابيين وتسعى لتبرئتهم من كل ذنب. لكنٍ هل يشفع لها هذا عندهم؟ أين هذا المكان القريب من البحر الذي ذهبت إليه ليلًا فقُتلت؟ ولماذا يرد اسمها مع شهداء مذبحة سيدي العنتري لو لم تكن منهم؟ تمنت لو كانت أمها هنا فتعود للمنزل تلقي عليها كل ما يدور برأسها فتفكر معها، لكنها هربت. أمها أيضًا تكذب، فقد أوهمتها بالعمل الكاذب الذي لم تجد له الماروكية أثرًا. أعادت لها نصف المبلغ بحسم: "لا أتقاضى مالًا إلا نظير خدمة، لقد كشفت عن العمل فلم أجده". هكذا قالت.

لو لم تكن صادقة لما كان ذاك تصرفها. عرَّافة ترافق جِنيًّا يهوديًّا تصدُقها القول، وأمها ربَّة الدار تلقي على مسامعها الكذب منذ زمن بعيد ثم تهرب منها. يصعب عليها ابتلاع كل هذا الكَمَّ من الغرائب، فظلت تدور حول عقلها بحثًا عن منفَذ تسلك منه لداخله فلا تجد.

أعادت لها نصف المبلغ، يبدو أنها لم تجد عملًا لتفكَّه. الفتاة غير مُحْصنَة إذن، وتعرف أنها كذلك، والأهم من هذا أنها سعت لفك تحصينها وأعدت لذلك الدراهم. تُرى ماذا ستفعل اليوم وقد اتضح لها أن فَرْجها لا يحرسه أحد؟ مع مَن ستحتفل بهذا النصر؟ ولماذا تُقلقه تلك الخاطرة أصلًا؟

انتهى بهما شارع محمد الخامس، توقفا قليلًا على الرصيف ليعبرا الطريق نحو سيارته، لم يلتفت لمكتب مصر للطيران مثلما فعل سابقًا، بل انقضَّ على يدها ليمسكها بقوة. لم تلتفت لضغطته فهما يعبران طريقًا عريضًا فقط التفتت لوجوده بجوارها. كانت قد نسيته منذ طرقت الماروكية رأسها بكل ما قالت. كيف استطاع الصمت طول تلك الفترة وهو من أعطى مادونا الدراهم فقط لتحدثه؟

أهذا ما تفعله بنا الغربة؟ أم الوحدة؟ ها هو أستاذها وقدوتها يخالط العاهرات، فلمَ تلوم أباها إذن لمعاقرته الخمر؟ تزداد كل الصور قبحًا كلما اقتربنا منها أكثر. ربما اتضح جمالها إذا تعمقنا فيما وراءها، فقد يعود محسن عن هذا الطريق وقد يعود أبوها للدار مبكرًا إذا ما كنَّا نؤنس وحدته.

لم ينبسا بكلمة طول الطريق. نزلت أمام حديقة الحما، لم تتجه نحو الدار بل قصدت رأسًا متجر البقالة البعيد. أرادت أن تشتري زجاجة نبيذ لأبيها تنطلق على إثرها لحانوته فتصحبه عائدةً للدار. أما محسن، فقد ازداد وجومه بعد أن تحسَّس مقعدها فوجده أكثر دفئًا من المرة السابقة.

وضعت زجاجة النبيذ في حقيبتها كيلا يراها أحد. اليوم حافل بالغرائب ولا ينقصه مشهدها تتجول ممسكةً بالخمر في يدها. ضغطت مفاجآت الصباح على مُخِّها وأخذت تدور برأسها في شبه دُوار خفيف. دارت يمينًا لتدخل شارع العربي بالمهيدي، كل شوارع وسط المدينة تحمل أسماء أبطال. كم شارعًا يلزمنا لنكرِّم كل أبطالنا؟ ربما ضاقت العاصمة بالأسماء، ثم لن تكفينا طرقات الجزائر كلها وسنحتاج لتسمية شوارع مارسيليا أيضًا.

هل سيتركوننا نقلد طرقاتهم أسماء من حاربوهم؟ ولِمَ لا وقد كانت شوارعنا تحمل أسماء أبطالهم؟ فهذا نهج ميشلي وذاك ديزلي وآخر ديبوسي. يستخدم أبي هذه الأسماء إلى يومنا هذا، لا يستطيع مطابقتها مع أسمائهم العربية حتى الآن. لماذا نطلق أسماء أبطالنا على شوارع بناها المستعمر الذي بذلوا أرواحهم لطرده؟

مرت أمام حانوت والدها من دون أن تتعرف إليه للوهلة الأولى، لم تَزُرْه منذ سنوات كما لم يكن هكذا حاله قديمًا. تذكُر عندما كان المكان مشعًّا بالضوء والنظافة، تسمع أصوات العمال والماكينات من الخارج، تفوح رائحة العطور الفرنسية من سيدات راقيات أتين لتسلُّم ملابسهن أو لتسليم أقمشتهن الفاخرة.

كيف آلَ الحانوت إلى ما آل إليه؟ لقد رأى هذا الرجل الكثير وهبط من شاهقٍ إلى ساحقٍ من دون أن نسمع لارتطامه دويًّا. تُرى هل شغلته الخمر عنَّا أم شُغلنا نحن عنه لأنه مخمور؟

دفعت الباب برفق فلم ينتبه، ظل صالح جالسًا، ظهره للباب ينظر للأسفل في شرود. وضعت يدها على ظهره فانتزعته من ضباب كان يغمره حتى أذنيه. دُهش لرؤيتها ثم استحالت دهشته ذعرًا، وقال في اندفاع:

- فاطي؟ هل أنتِ بخير؟ (ثم أردف منتبهًا)، ولامو؟

آلمها السؤال، ليس لأنه قلق عليهن فحسب، بل لأنه لم يتوقع أن تزوره ابنته بلا سبب قهري. أجابته:

- فقط أوحشتني، وكنت بالجوار.

أراد أن ينهض لكنها دفعته برفق ليبقى، واحتضنته جالسًا كما هو ثم استطردت وهي تسحب كرسيًّا لتجلس:

- منذ زمن ونحن لم نجلس معًا نتحدث ونأكل، سأجلس معك حتى تنتهي ثم نعود معًا للدار.

بدت عبارة "حتى تنتهي" غير ذات موضع..

"مِمَّ أنتهي؟" تفكر مليًّا. أنا لا أفعل شيئًا، لا اليوم ولا الأمس ولا غدًا. يريد أن يقوم معها لكنه سينتظر حتى تصبح الساعة السادسة. سيغلق حانوته ويتجه إلى الحانة ليشرب حصته اليومية، قبل أن يعود للدار مخمورًا يأكل وحده وينام حتى الصباح. يمزقه أن تعود خائبةً لكنه لا يقدر على مواجهة الليل منتبهًا.

- قد أؤخرك كثيرًا يا بْنَتي، عودي أنتِ وسألحق بك فور انتهائي.

فطنت لما دار في خَلَدِه فاستدركت:

- لن أتركك، فأنا أدعوك لوجبة فاخرة في الدار. الطعام على لامو وعليَّ النبيذ.

أدهشه التغير الجذري في سلوكها تجاهه، تأتي لحانوته وتشتري له الخمر.. ألا لعنك اللـه يا باهية حيث أنتِ، فأنتِ من أبعد بناتي عني. ابتسم لها فبدا وجهه غريبًا هو الذي لم يبتسم منذ سنوات.

- أرجو من اللـه أن تكون قد أعددت شخشوخة، لم نأكلها منذ زمن وأوحشتني.

أرادت أن تعِدَه بطهوها له غدًا إن لم تكن طبق اليوم، بيد أن الجملة لم تخرج من صدرها لا تعرف لماذا.

أغلق حانوته مسرعًا وقد دبَّ في دمه نشاط غير مألوف. مرَّ متعمدًا بحانوت سي الطاهر وألقى عليه سلامًا قويًّا عاليًا كمَنْ أراد أن يتيقن من أنه رأى فاطي معه. حقًّا يريد أن يُرِي الشارع بأكمله أنه يسير مع ابنته. أي مجرم سلبه تلك البهجة لسنوات؟ وهل سيُعاقب على سرقته؟

سحب صالح سيجارة ريم من جيب سُترته الداخلي بعد أن انتهى من طعامه، وجلس مكملًا حديثه مع فاطيما عن قضية فريـال. حكت له كل ما تعرف، دارت قليلًا حول بعض التفاصيل فليست هي من ذهبت للماروكية بل صديقة أخرى، لا بأس بتلك الكذبة الصغيرة طالما لم تُخِلَّ بالتفاصيل. لسببٍ ما لم تسترحْ للإفصاح عن توطد علاقتها بمحسن، فلنُنحِّ تلك القصة جانبًا الآن فاليوم لا يحتملَ أكثر مما حمل.

أخذ يدور بسبَّابته حول قمة كوب النبيذ من دون أن ينطق، قبل أن يرفع رأسه قليلًا لينظر إليها قائلًا بابتسامة خفيفة:

- ستفهمين ما أقول لك أم ستظنين أن الخمر قد عبثت بعقل أبيك؟..

- أي نظرية تقارب هذه الأشلاء من بعضها لتصنع صورة قريبة من المنطق هي كل ما أحتاج الآن..

- الصورة بوضوح الشمس، على الأقل بالنسبة إليَّ. لكننا نتعامَى عنها بإرادتنا خشية أن نفهم فلا نعود حمقَى بعد ذلك أبدًا.

ثم رجع بظهره للوراء قبل أن يردف:

- الجرائد والتلفاز والمذياع تعمل على تلقيننا أكاذيب واضح عوارها، لكننا نبتلعها بالتكرار ونتلقفها برغبةٍ في التصديق.

أخذ صوته يعلو تدريجيًّا كلما اندمج في الحديث وبدا وجهه يتقلص قليلًا. بدا الفضول واضحًا على وجهها فواصل حديثه:

- ما نعرفه هو أن الإسلاميين قد فازوا في الانتخابات النزيهة الوحيدة التي دارت في البلاد. لم تعجب النتيجة البعض فطووا الصفحة كأن شيئًا لم يكن؛ فهاج الإسلاميون وانقلبوا لإرهابيين يقتلوننا. أليس كذلك؟

أجابت بتلقائية تقترب من الملل المصاحب عادة لنقاش البدهيَّات:

- نعم، هذا ما حدث منذ سنوات.

أراح مرفقيه على المائدة واقترب بوجهه منها أكثر رغم ارتفاع صوته، وقد أخذ وجهه في الاحمرار:

- ولماذا يقاتلوننا نحن؟ عند الانتخابات أنجحَهم الشعب وألغى نتيجتهم چنرالاتنا الموقرون. فمن يجب عليهم أن يقاتلوا؟

- هل تثق في منطقهم لهذا الحد؟ ثم إنهم يقاتلون الجيش والدرك والشرطة أيضًا. إلامَ ترمي يا أبي؟

مطَّ شفتيه من ناحية واحدة فيما يشبه نصف ابتسامة ثم رفع كتفيه، وأكمل كصيادٍ نال من صيده وبدأت ثقته في النصر ترتفع:

- لو كنت مكان جبهة الإنقاذ وعندي السلاح وقادر على محاربة الدولة بأسرها لست سنوات، لوفرت رصاصاتي لمن اتخذ القرار بحرماني من حقي في البرلمان، بدلًا من إضاعة وقتي وجهدي في قتال مدنيين عُزَّل لم يؤذوني وأنتظر دعمهم لي بعد استعادة برلماني المنهوب.

أراح ظهره للخلف ثم مال برأسه ناحيتها قبل أن يسأل بصوت خفيض:

- أليس كذلك؟

أطرقت برأسها وقد بدأ الاقتناع يتسلل لنفسها، ثم استدركت بصوتٍ يخلو من ثقة:

- لكنهم يروننا كفارًا و...

قاطعها بسرعة وقد عادت إليه عصبيته:

- وهل لم يروا كفرنا إلا بعد أن حرمتهم الدولة من نجاحهم؟.. الدولة لا تحارب الإرهاب يا بُنَتي، بل هي الراعي الرئيس له.

خلا صوتها تمامًا من الحياة وهي تسأله:

- ما الذي جعلك تعتنق هذا الظن؟

ضرب الطاولة براحته لتنتبه لما سيقول:

- ابحثي عن المستفيد فاطي، مَن المنتفع ومن المتضرر مما يحدث؟ هل من حارب جيش فرنسا وأخرجها من البلاد لا يقوَى على أعداد قليلة من عصابات أقل منه

عددًا وعُدّة؟

- وكيف تفسر تلك النظرية مقتل فريـال؟

قلَّب شفته السفلى وترك الامتعاض يطفو على كل ملامح وجهه ووشت نبرة صوته بقلَّة الحيلة:

- تفسر تلك النظرية كل شيء، فإن من يقتلنا ويلصق جرائمه بآخرين ليسرقنا ثم يدعي أنه من يحمينا، قادر على أن يفعل أكثر من هذا بكثير.

رفع كتفيه بيأس ومطَّ ذقنه للأمام مستطردًا:

- لم يُرِد والد حميد زواج ابنه من فريـال، ولمَ يتزوج من عامة الشعب إن كان بإمكانه الزواج من ابنة جنرال آخر؟

- لكنها حُبلَى منه أو هكذا يظن. ولا يجب أن يلحق أي عار باسم هذا الشاب المُدلَّل. فماذا يفعل؟

غارت تجاعيد وجهه فأصبحت أخاديد بفعل الامتعاض:

- الحل أن تختفي فريـال للأبد ويختفي حميد مؤقتًا (قالها وهو يدبُّ سبَّابته على الطاولة حتى كاد أن يخرقها)، قُتلت الحمقاء المسكينة ثم وضع اسمها وسط ضحايا سيدي العنتري. وسافر حميد إلى فرنسا وانتهت القصة.

صبَّ آخر ما تبقَّى من زجاجة النبيذ في كوبه وأخذ يرشف منه ببطء، وهو ينظر بين فينةٍ وأخرى إلى ابنته. يرفع كتفيه مُقطِّبًا جبينَه كلما التقت عيناهما فتبادله نظرة زائغة.

- هكذا نحن فاطي... لا شيء. ذرَّات من غبار ينفضونها إذا لوثت رُتَبهم فوق الأكتاف أو لامست نياشين تزين صدورهم.

لا تستسيغ ما يقول رغم أن نظريته تبدو كالقطعة الناقصة في لغزها الغامض. التفسير الوحيد الذي يضع كل قطعة في مكانها فتلتصق بأختها وتكتمل الصورة، لكنه مستبعد أيَّما استبعاد.

تعرف أن أباها يكره الحزب الحاكم والدَّرَك والوزارات وكل من له صفة رسمية يلقي على كاهلهم مسئولية تخلف البلاد، هذا جائز. أما أن يتهمهم بالضلوع في هذا الإرهاب الأسود فهذا ما لا يمكن تصديقه.

لم تشأ أن تُنهي حديثها معه بشجارٍ كما اعتادت، فهي توَّاقة لاستعادته كأبٍ ثانية. لكن لا تُلزمها تلك الرغبة بتصديقٍ كل ما يقول، لا سيَّما وهو يهرف بما لا يعرف ويُشكِّك في مَن بيده إنقاذ الوطن من براثن السفاحين. تمنت حلول الصباح لتناقش محسن فيما قاله أبوها، لم يأتِ الرجل بقولٍ غير مطروح، فهي تعلم جيدًا أن هناك من ينحو نحوه في الفكر. أما أن يمتد هذا التفكير لبيتهم فهذا ما لم تكن تحسبه ممكنًا.

تمَّنت لو سخر محسن مما قاله أبوها وفنّده ودحضه وأثبت عَوارَه، حكيم هو ولن يُعجزه ذلك بحال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

26

وُضعت بالسجن الحربي، لا بأس بذلك مطلقًا. لاحظ قائدي مؤخرًا تخاذلي عن "نصرة الوطن". مع الوقت صرت أكره المسخ الذي تحولت إليه، من الذي يقتل المواطن ليحيا الوطن؟

"قالَ رَبِّ السِّجنُ أحبُّ إليَّ ممَّا يَدْعُونَنِي إلَيْهِ" صدق اللـه العظيم.

حقًّا السجن أخفُّ وطأةً من قتل الناس أو المشاركة في قتلهم أو التستر على قاتليهم. لفت القائد نظري أكثر من مرة. كثرت اعتذاراتي عن المهمات المريبة المنوط تنفيذها بكتيبتنا، واجهني فانفجرت. سألته عن الإسلاميين الذين يأتون لمعسكرنا ويقضون معه بالساعات ثم يخرجون لم يقبض عليهم أحد. سألته عن الخمور والمُخدِّرات وعن الدراهم التي تدخل وتخرج من الكتيبة وعن السلاح. سألته عن الزِّيّ العسكري الذي لم يعُد ملزمًا وسألته عن ضباطنا الملتحين، ومنذ متى التساهل في المظهر العسكري المنضبط ولماذا فقط في وحدتنا؟

كان بوسعه أن يُخرج سلاحه ويقتلني، بيدَ أنه لم يفعل ولا أعرف ما الذي منعه. ربما خشي تمرد بعض الزملاء إن أرداني قتيلًا، فالبعض من زملائي ما زال يحمل حُبًّا للوطن يفوق حب العمل.

خلال ساعات تمت محاكمتي العسكرية وحُكم عليَّ بثلاثة أعوام في سجن سركاجي. لم أصدق نفسي عندما وجدتُني وجهًا لوجه مع مبارك بومعرافي، قاتل الرئيس الراحل بوضياف. في السجن الجنائي يخشى الجميع من القتلة، فمن أزهق روحًا ليس كمن سرق رغيفين ليُطعم أبناءه. بعكس السجن الحربي، كل رواده قتلة، لا أعني سفاحين لكن ما من عسكري جزائري لم يطلق النار على أبناء جلدته. كل من بالداخل عمل جنبًا إلى جنب مع قابض الأرواح لفترة طالت أو قصُرت.

مثله كمثل معظم ألغاز هذا الوطن يرتع بومعرافي في السجن بسلام وهو من ضُبط متلبسًا بقتل رئيس الجمهورية، بينما يُقتل مواطن عادي لمجرد مروره بشارع ما أو لسكناه قرية وقع عليها الاختيار لتكون مسرحًا لمذبحة يشهدها القاصي والداني.

غامض بومعرافي كغموض الظروف المحيطة به. لا أصدق هدوءه وحديثه الهائم عن أسباب قتله لرأس الدولة: "قتلته حتى لا يلطخوه. أنقذت البلاد من تقسيمها لثلاث دُوَيْلات كما خطط الفرنسيس". كذب ككل ما أسمع هنا. أتفرسه مليًّا، هل قُتل بوضياف حقًّا؟ أم قتل قاتله؟ لا أعرف، بالأحرى لا يعرف أحد. مع الرَّصاصة الأولى انفرط العقد ولم تعُد ترى من يفعل ماذا.

هم من أتوا ببوضياف من المغرب، بعد أن هرب إليها إثر الحكم عليه بالإعدام، وأغلظوا له التعهدات، لم يقتنع في البداية واعترض على بتر الانتخابات كما أصرَّ على أن يفتتح خطابه بـ "أمدُّ يدي لكل الجزائريين" رحمك اللـه يا بوضياف، اختلفتَ مع بِنْ بِلَّة فأهدر دمك لخلافك مع الرئيس وقاتلُك حيٌّ يُرزق رغم أنه من قتل الرئيس. وحده موقف كهذا كفيل بإفهامك بأن الجزاء ليس دائمًا من جنس العمل.

أتساءل كثيرًا عن جدوى سَنِّ القوانين وبذل الجهد والوقت في التشريعات إذا كانت الأحكام تُطبخ في قدور الچنرالات.

في السجن تسنح لك الفرصة لترتيب رأسك، لكنه أيضًا حرمني من كتابة اعترافاتي التي كنت أرسلها لأستاذي القديم. لا أظنه يفتقدها، وعلى كل حال سأخرج يومًا ما وأهرب من هذا الجحيم. ساعتها سأكتب كل هذا في كتابي الذي سيقرؤه الجميع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

27

استيقظَتْ فاطيما قبل الجميع، بالأحرى لم تنَم جيدًا من التفكير. فبرغم ثقل حديث الأمس وتداعياته على معتقداتها الثابتة، فإنه مرفوض وبغيض. وحده يفسر كثيرًا من الغموض. تزلزلت حقًّا مما قاله أبوها، آلمَها أن يأتي اتهام ولاة الأمر حُماة الوطن من أبيها، كيف يجرؤ؟ ربما آلمها أكثر بساطة التفسير ووضوحه، كلما تعمقت في التفكير درجة وجدت نظرية أبيها ما زالت صالحة لكن لا تتقبلها. لم تخطر ببالها رغم كل الشواهد التي تعامَى عنها الناس وتعامت عنها اختياريًّا. يزعجها أيضًا وصول أبيها للحقيقة قبلها، في قرارة نفسها تشعر بتفوقٍ ما سببه حصولها على قسطٍ أوفر من التعليم، كما أنها لا تتلف عقلها بالخمر كما يفعل هو فكيف يسبقها إذن؟ لا لم يسبقها، هو فقط يتخيل شيئًا مستحيلًا ويصدقه وحده. ليس وحده فقط، فهناك آخرون مؤمنون بتلك النظرية لكنهم ببساطة لا يعلمون.

ما لم تغفله أيضًا شعورٌ خفيٌّ بالسعادة تحرك في قرارة أعماقها إثر أمس. منذ زمن لم يجالسهن صالح على العشاء، لم يتحدثوا معًا، لم يضاحكهن ولم يعلق على جودة الطعام. كانت باهية مَنْ تجمعهن على المائدة قبل عودته، كن يُهرعن بعد العشاء.. لامو تجمع المواعين لأمها الواقفة أمام الحوض، يحتل ركنَ فمها سيجارةُ ريم مشتعلة تدخنها مع غسيل الصحون. بينما تأخذ فاطيما، زهرة لتغسل لها يديها وفمها قبل أن تعد الشاي الأخضر بالنَّعْناع. تصبُّ الأكواب في الصينية النُّحاسية وتدور عليهن تعطي كل واحدة شايها ثم تعود للاستذكار.

"كم كانت الحياة حلوة قبل خيانتك يا أمي".

جرت إلى المخبز فاشترت رغيفين، ثم إلى الأغذية العامة لتشتري جبنًا أبيض وبيضًا وزيتونًا. أعدت إفطارًا سريعًا وأيقظت صالح ولمياء. تمنت لو كان الوقت معها لأعدت لهم البراج ([13]) الذي يحبه أبوها والمَحاجِب التي تعشقها لامو، لا بأس، ستُعدُّها يومًا آخر. فاحت رائحة القهوة مع البيض المقلي في الزُّبْد تبطنها رائحة الخميرة المنبعثة من الخبز المقطع، فدبت في البيت روحٌ طال غيابها.

- لا تتأخر يا أبي، سنعد الشخشوخة اليوم ولن تحبها باردة، سننتظرك مع السادسة.

عاجَلته فاطيما قبل أن ينزل.. اتسعت ابتسامته فارتفعت معها نظارته الجديدة وهو يهز رأسه موافقًا.

وقفت فاطيما أمام الحوض في فمها سيجارتها الجولواز وفي رأسها جدول عشاء الأسبوع: شخشوخة، طاجن الحوت، طعام تليتلي الدجاج، مارجاز مع المقرون، لحم حلو مع شباح السفرة، طاجن قاضي وجماعته ([14]). هل حقًّا باهية هي مَنْ كانت تجمع الأسرة أم من كانت تفرقها؟

ستنهي محاضراتها سريعًا ثم تذهب إلى محسن، تحتاج لمناقشته فيما سمعته من أبيها، بالتأكيد سوف يؤازرها ويُطمئِن قلبها، لا شك في ذلك بالقطع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

28

ذاع صيت باهية وسط مُسنِّي بروكسل. آلة الزمن التي تعود بهم إلى سواحل تيبازا وزرالدة وسيدي فرج، كورنيش وهران وجسور قُسَنْطينة وجبال تيزي ووزو. تؤنس فراغ العجائز الوحيدين، تعدُّ لهم الهريسة الحارة والسلاطة المشوية، تقلي البوراك وتشوي المارجاز ([15]) وتكثر أوراق النعناع في إبريق الشاي الأخضر فتفوح روائح الماضي في منازلهم. تعرف كيف تخلق وطنًا صغيرًا، تغني بالعربية بصوتها المبحوح، ترقص أمامهم بجلَّابتها الزاهية، ترفع النار قليلًا ليندفع البخار ناشرًا عبق الهريسة ([16]) ورأس الحانوت ([17]) عبر أركان المنزل.

جنِّية تأخذك من يدك وتعبر بك البر والبحر والوقت، تعود شابًّا كما كنت في البلاد في الخمسينيات الغابرة. تمرُّ دماء الشباب في عروقك تأخذك الحماسة، ترقص قليلًا مع باهية الزاهية تتسع ابتسامتك وأنت تحتضنها، تعود إلى مجلسك قبل أن يدور رأسك من النشوة أو من المجهود، تكتفي بقَرْصة من ردفها أو بتربيتة على صدرها الكاعب حتى تنتهي من إعداد السفرة، هي لن تنصرف قبل منحك تدليكًا كاملًا تجود عليك إبَّانه بمشاهد مختلسة من مفاتنها العربية، تنقُدها على أثرها ما تستحق من فرنكات.

تُطوِّر خدماتها كيلا يزهدها الزبائن، تأتيهم بزجاجات الحمود بوعلام والسيليكتو ([18]) بدلًا من الكوكاكولا. تعرف من أين تبتاع النبيذ الجزائري لسفرة عربية كاملة. سألها السيد برانا إن كانت تعرف سبيلًا إلى "الزطلة ([19])". لم تترك الدهشة تحتل ملامحها لأكثر من ثوانٍ. تعرف جيدًا أن هذا ما تنقله زهرة وإن اصطنعت الجهل.

لم يمرَّ يومان حتى أتته بطلبه. عقدت ساقيها أمامه مفترشة الأرض، تخرج ركبتاها من الجلباب. وضعت صحنًا كبيرًا في حجرها، مدت يدها في صدرها لتُخرج منه قطعة حشيش بحجم عقلة الإصبع ومستلزماتها. أخذت تسخن وتقطع وتخلط بالتبغ كما علمها خالد. تنظر للأعلى نحو برانا بعينين ناعستين قبل أن تخرج لسانًا غارقًا بلعابها لتلعق طرف الورقة بدلال مقصود.

لفّت من القطعة أربع لفافات، حرصت على أن تمده بإحداهن مُبتلَّة بلعابها لتُشعله هو قبل أن تشعلها له. دخنَّاها معًا، هو على مقعده ينظر إليها من الأعلى فاتحةً فاها في انتظار دورها في التدخين.

خدمة كتلك باهظة الثمن، سرعان ما أضافتها لقائمة خدماتها عسى اللـه أن يُعجِّل بثرائها لتجمع شمل بناتها بعيدًا عن زوجها السكير. تؤكد لنفسها بين فينةٍ وأخرى أنه يعاقر الخمر كيلا تندم على فراقه، فالخمر رذيلة بغيضة قطعًا... رذيلة بغيضة هي الخمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

29

صباح شتوي بارد، عاد محسن إلى منزله حاملًا جريدة الخبر ورغيف خبز "مطلوع" مستديرًا وبيضًا وجُبنًا وزبدًا. استيقظ مبكرًا ونزل لشراء ما يلزم لإعداد فطور يليق بجوع الشتاء.

يحتاج شراء المطلوع إلى الذهاب لحانوتٍ أبعد. كان بإمكانه الاكتفاء بالخبز الفرنسي الطويل كالعصاة، تبيعه المخبزة القريبة ويبتاعه منها بشكلٍ يومي. بيد أن البرد القارس وبؤس الوحدة أثارا شوقه إلى مصر، فسار طالبًا المطلوع أقرب أنواع الخبز الجزائري للرغيف البلدي. فتح مظلَّته ليبقى جافًا ما استطاع، إلا أن الأمطار أبت إلا أن تأتيه من كل اتجاه فلم تزده إلا إصرارًا.

رصَّ أطباقه على المنضدة المقابلة للتلفاز، فحنين كهذا يحتاج لفيلم أو مسلسل مصري لتصبح حجرة معيشته جزيرة مصرية منعزلة عن واقعه الموحش. حلقتان من "ليالي الحلمية" أو "الشهد والدموع" هي غاية المنى. ليتهم عرفوا الفول لكان اليوم أجمل.

ساعات قصيرة قضاها بين تلفاز وجريدة، لا خبرٌ جديدٌ ولا خبرٌ صادق، فقط مزيد من الحوادث، تفجير هنا وإطلاق نار هناك. لا جديد البتَّة فالموت لم يعُد خبرًا يستحق التأمل.

رنَّ جرس الهاتف فقام إليه متمهلًا، ما عاد يسأل عنه أحد، حتى الخطابات المجهولة توقفت بلا مقدمات كما كانت تصله.

على الناحية الأخرى كانت فاطيما تحدثه من دائرة أزفون بولاية بجاية. مكالمة قصيرة وشَى صوتها بمدى ما بها من إرهاق وقلق، صوتها مُتهدِّج كمَن بكت طويلًا قبل أن تتصل.. تسأله إن كان بالمنزل بعد الظهيرة فهي تريد أن تلتقيَه.

أكثر من ستة أسابيع مضت منذ آخر زيارة لها. حدثته فيها عن رأي أبيها وقصَّ عليها فحوى ما تلقاه من خطابات. تناقشا طويلًا قبل أن تنصرف مُشوَّشة الذهن أكثر بعد تلك الزيارة. أثار اختفاؤها خوفه في البداية؛ خاصةً وقد تزامن مع انقطاع الرسائل. ماذا لو كانت أبلغت الأمن الوطني عنه؟ أو لو كانت هي من تراسله لتُوقِع به بالتعاون مع المخابرات؟ ولِمَ يستهدفوه هو من دون باقي المعلمين؟ ...

ثم استحال خوفه قلقًا عليها عندما لم يوقفه الأمن قبل أن ينتقل إلى مرحلة عدم الاكتراث لغيابها. كان حضورها مُسليًا لكنها آثرت الغياب، ليكن إذن.

"تُرى ماذا تخبئ عودتها اليوم؟".

نظر في ساعته ليحسب موعد وصول حافلتها:

"أمامنا ساعتان قبل أن نلحق".

حلق ذقنه وتحمَّم، تعطر وارتدى أثقل ملابسه، ثم أخذ سيارته متجهًا إلى محطة الخروبة لينتظرها.

أهو الفراغ؟ أم الفضول؟ هل اشتاق لرؤيتها؟.. كل ما يعرفه أن شيئًا ما في صوتها حداه لأن يكون أول ما تقع عليه عيناها في الجزائر.

عجوز مُسِن يخفي جسده الناحل تحت برنوصه ([20]) البُنِّي الخشن، يجلس خلف برَّاد شاي ضخم ينفث بخاره الأبيض ساخنًا فيتبخر وسط صقيع المحطة. نفح البائع قطعة نقدية فئة الخمسين دينارًا أجابه مقابلها بكوب ورقي مترع بالشاي الأخضر، أمسكها بكلتا يديه لتدفئه وهو يقطع الرصيف جيئةً وذهابًا. يعلق بصره ناحية حافلات الشرق. يتسمَّر في مكانه مُتفرِّسًا في الركاب كلما توقفت مركبة عائدة من بجاية، يتفحَّص النازلين وجهًا تلو الآخر حتى تفرغ العربة من ركابها، فيستأنف تمشيته قطعًا للوقت وطمعًا في قليل من الدفء.

لاح له رأسها أخيرًا لكنها كانت شاحبة متجهمة. علت وجهَه ابتسامةٌ لم يحاول كبحها وهو يترك الرصيف متجهًا نحوها. مصادفة وجه مريح وسط الزحام هو أحد أكثر المشاعر دفئًا، كمغترب يعرف تلك الحقيقة جيدًا؛ ولذا حرص على منحها ذلك الدفء الذي تحتاجه بعد رحلةٍ كتلك.

اتسعت عيناها لرؤيته، لم تكن تتوقع حضوره لاستقبالها في مثل هذا الطقس السيئ. احتضنته بقوة ثم أجهشت بالبكاء من دون أن تنطق. ربَّت على رأسها محاولًا تهدئتها حتى سكنت تمامًا. اتجها نحو سيارته، لم يحاول دفعها للحديث؛ فسحنتُها تنضح بما يعجُّ به صدرها من تقلبات آثر معها أن يتركها حتى تستقر تمامًا. يعرفها جيدًا، ستحكي بلا ضغط من جانبه، فقط تهدأ وستُفرغ جعبتها في صدره.

الساعة تقترب من الرابعة، والظلام سيحل خلال ساعات. تركها جالسةً على أريكة غرفة المعيشة وأسرع إلى المطبخ. أعدَّ كوبين من القهوة ذات الحليب ووضع بضع وحدات من كعك تِلِمْسَان اليابس المُنكَّه بالينسون. أحضر كوبًا فارغًا لتستعمله كمطفأة لسجائرها. لم تدخن طول الطريق احترامًا له، لكنه يعرف حاجتها للدخان الآن.

جلست متقوقعة على نفسها تسند مرفقيها على ركبتيها، وقدماها متصلبتان كراقصة باليه. تدمع بلا نحيب وهي تروي بتوتر:

- بعد أن أثار أبي شكوكي حول دور الأمن فيما يحيط بنا من رعب ولعنات، وشعوري بضلوع حميد أو والده في مقتل فريـال، حاولت الذهاب ثانيةً لخالتي كنزة لأطمئنَّ عليها وأحادثها علِّي أسمع منها ما ينفي مزاعم أبي أو يثبتها. لم أجدها بمنزلها، سألت عنها وأخبرني جيرانها بأنها لم تحتمل الجزائر بعد مقتل فريـال فعادت إلى بلدتها أزفون. انتظرت يوم عطلتي وامتطيت الحافلة مع السابعة صباحًا متجهةً إلى منزل خالتي كنزة. أريد أن أحتضنها، أن أبكي على كتفها. يُثقلني إحساسي بالذنب لا أدري تحديدًا لماذا. هل لكوني أعلم القاتل ولا أستطيع البوح؟ ربما، لكني لا أعلمه حقًّا. مجرد قول عرافة ورأي سياسي لأبي وخطابات أتتك من

مجهول. هل لأني عربية كقاتلها؟ وما ذنبي؟ وهل يفرِّق الإرهاب بين عرب وبربر؟ أردت أن تنظر في عيني، تشاهد بكائي، تبكي معي فأترجم نظرتها لعفوها عني.

تقلص وجهها واندفعت الكلمات من فمها مع نوبة بكاء جديدة:

- لم تكن حُبلَى، كنت أعلم. حميد لا يعلم، لا يعرف شيئًا. كانت تحاول أن تُعجِّل بزواجهما فعجلت بمَنِيَّتها. ليتني منعتها من تلك الخُدْعة الغبية، ما كانت لتُقتل لو كنت قد أثنيتها.

حاول محسن تهدئتها فقاطعها قائلًا:

- لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

أومأت بخفَّة مُؤمِّنة على رأيه فانهمرت دمعتان لؤلؤيتان على خديها، استطردت على إثرهما قائلةً:

- وصلت أزفون بعد ساعتين على الطريق. جميلة حقًّا، يسمونها الجنة الصغيرة وهي كذلك. لكنها رغم جمالها لا تُطاق، عاملني أهلها بسخافة ظالمة. تحاشيت العربية كيلا أستفزهم. أسألهم عن العنوان بالفرنسية فيجيبونني بالأمازيغية. نظراتهم إليَّ تحمل كُرهًا وضغينة. لا أعرفهم ولا يعرفونني ومع ذلك صنَّفوني كعدوٍّ لمجرد أني لست من البربر. وصلت للمنزل بعد معاناة وطرقت الباب وأنا أشعر باقتراب الخلاص.

أجهشَتْ بالبكاء حتى تهدَّج صوتها وهي تكمل:

- خالتي كنزة لم تفتح لي.. فتحت نافذة الباب الصغيرة وما إن رأت وجهي حتى صرخت فيَّ: ماذا تريدون مني؟ ما الذي أتى بك؟ وأخذت تُعنِّفني بأمازيغية لا أفهمها ووجهها يتقلص ويحتقن بالدماء. تُحمِّلني ذنب القتيلة، وربما كانت تحملني إثم كل ضحايا البربر منذ بداية الربيع الأمازيغي ([21]) حتى الآن. لا أعرف سوى أن كرهها لي الآن يفوق بمراحل حبها لي في الماضي. كنت آكل في منزلها وأبيت عندهم وتبيت ابنتها عندي. كنا كالأخوات، ماذا جنيت أنا لتتحول إزائي هذا التحول الغريب؟

صفعَتِ الباب وظلت تصرخ بالداخل. وقفتُ لثوانٍ جامدة لا أدري ماذا يمكنني أن أفعل. أبكي في صمت خشية أن يسمعني أحد ويسمع صراخها فيضربني أو يقبض عليَّ. عدتُ أدراجي بسرعة خائبة الرجاء، أتلفَّت حولي خائفةً من الناس. وقفت بالمحطة في انتظار أول حافلة عائدة إلى العاصمة. كنت مشحونة جدًّا ولن يتفهَّم أحد ما بي، لم أجد أحدًا ألجأ إليه سواك. اتصلت بك، أردت أن أتحدث إليك. آسفة إن كنت أزعجتك وأخرجتك من دفء المنزل في هذا البرد الشديد. لم أرِد أن أتعبك. يعلم الله، كنت سآتيك أنا، كنت محتاجة لمحطة آمنة قبل أن أعود للمنزل. لم أتوقع مجيئك، بيدَ أن الكلمات لا تسَعُ لشكرك على انتظاري في الخروبة.

اقترب منها قليلًا وارتعشت يده وهي تمتد نحوها، يريد أن يمسح دموعها بعد كل ما قاست. كان يومها بشعًا تمنى لو يستطيع محوه من رأسها. اقتربت هي أيضًا

واحتضنت رأسه بقوة ثم لفت ذراعيها حول عنقه. لم تستطع إخباره عن ذلك الشاب الذي كان يجلس خلفها في حافلة الرجوع. عن قدمه التي مدها حتى تلامس ساقها وعن خوفها الذي منعها من الصراخ، فتركته يعبث بها واكتفت بالدموع. تشبثت برأسه أكثر، شدته إليها ودفعت صدرها في صدره، فدفقت دفئها في عروقه الباردة، وارتفعت حرارة دمائه حتى أوشكت على الغليان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

30

أسبوع كامل مرَّ منذ ضمَّها محسن إلى صدره بهذه القوة. سبعة أيام احتاجتها لتجترَّ فيها تلك اللحظة الفارقة التي سقطت فيها أكذوبة أخرى كبيرة من تلك الأكاذيب التي نشأت عليها.

الفترة الأخيرة كانت عامرة بلوحات كبرى تتمزق وتتهاوى واحدة تلو الأخرى؛ هروب باهية ومقتل فريـال واكتشافها لتورُّط الأمن فيما جرى للبلاد وأخيرًا صدق الماروكية، فلا صحة لعمل القُفْل.

لم تذهب للجامعة طوال هذا الأسبوع، خائرة القوى لا تريد أن ترى أحدًا. عقلها لا يتوقف كفرن الصلب الذي لا حق له في الارتياح منذ إشعاله حتى هدمه.

لسنواتٍ خلت كانت ترى الإرهاب كنصل كبير يمسكه طرف واحد يحلق به رقاب من يقف في طريق وصوله للحكم، اليوم تراه كمقصٍّ يحكمه إصبعان متضادَّان يتناوشان فتسقط الرؤوس فلا يرثي لهم أحد.

تشتعل أفكارها فيتأجج الفرن ثم تتهافت عليه الأفكار القديمة لتزيده احتراقًا، هروب باهية ومقتل فريـال واختفاء حميد وما قالته الماروكية وما حدث مع محسن...

لم يحدث بينهما شيء ولكنها لاحظت ارتفاع صوت أنفاسه، يُمناه التي كانت تصعد وتهبط مُتحسِّسة ظهرها، نبضاته التي ارتفعت حتى أصبحت على مرمى سمعها. لم يقترب منها أحد لهذا الحد حتى ذلك اليوم. هل أرادت أن يقترب أكثر؟

نعم أرادت أن تخبُر شعورًا طالما آمنت باستحالته تحت تأثير وهم العمل، وشاهدته يقترب فور معرفتها بالأكذوبة.

ولذا، لم تُرِد أن تستهل أنوثتها على يد معلمها الذي تراه أبًا ثانيًا لها. انتصر الرفض فربَّتت يومَئذ على كتفه مُنهيةً هذا العناق قبل أن تراجع نفسها فتلين.

حاولت كسر التوتر وليتها لم تفعل، سألته:

- لماذا بقيت السيدتان في مصر ولم تعودا معك؟

اعتدل في جلسته كمن استفاق من حُلْم جميل، حدق فيها مذهولًا، رفع كتفيه معربًا عن ضعف حوله وقوته. مسح شعره بكفِّه مسترجعًا تفاصيل دقيقة، يختنق صوته وتضيق حدقتاه، يجيبها:

- أنا وسناء أقارب، من بعيد لكنها تقرب لأمي رحمها اللـه. تزوجنا قبل أن آتي إلى هنا بشهرين. أسَّسنا بيتنا هنا وأنجبت ابنتنا في مستشفى بارني بالقبة. كبرنا هنا وأصبحنا عائلة جزائرية، تتحدث ابنتي الفرنسية بطلاقة وعامِّيتُها المصرية ركيكة، تحلم باللهجة الدارجة. شهدنا معًا إلغاء الانتخابات وما تلاها من فظائع، سرى علينا ما سرى عليكم من حظر تجوال ونقص في المؤن ورعب إذا طرق بابنا طارق بعد

الغروب. لم نفكر مرةَ في الرجوع، فنحن من هنا. لا بيت لنا في مصر وبيتنا هنا أقوى مما يحدث حوله.

هزت رأسها مُؤمِّنةً على حديثه ليسترسل:

- عطلتنا الأخيرة في مصر، كانت مناسبة ليتقدم لخطبة داليا أحد أقاربها. قرأنا الفاتحة وسط فرحة الأهل وشعرنا بقرب انتهاء رسالتنا. كانت سناء تضحك ودموعها تهطل من عينيها فلا يعرف من يراها أحزينة أم سعيدة هي. ذات يوم وأثناء تناولنا الطعام، أشدتُ بلذة ما طهت لنا سناء، وأخذت أعدِّد في مناقبها كزوجة وأحثُّ داليا على أن تحذو حذوها.

علَتْ وجهَه مسحةُ ندمٍ واضحة وهو يستطرد:

- ثم انبريت لأستكمل نصائحي كأب، اعتمرت قُبَّعة المعلم وأتممت خطبتي موجهًا إيَّاها لما يتعيَّن عليها تجنُّبه لتصبح زوجة صالحة، وأخذت أسهب فيما يكره الرجال وما يفسد عليها زوجها وزواجها. كنت أرغي وأزبِد لأدخل الكلام في أذنيها قسرًا، وكانت تسمعني بينما كانت سناء تنصت بوجه جامد لا يشي بما يدور في رأسها. أنهيت خطبتي وداليا مستمرة في العبث بملعقتها في صحنها، لم تُبدِ انطباعًا قويًّا فيممت وجهي شطر سناء باحثًا عن أثر كلماتي على وجهها. لم تَزِد على كلمة واحدة: انتهيت؟ ثم انفجرت في بكاءٍ طويل. لم أفهم بادئ الأمر لكنها أوضحت بعد محاولاتٍ عديدةٍ أن كل ما زعمته من مكاره يزهدها الرجال كانت خصالها هي، كانت خصال سناء. يعلم اللـه أني لم أُبغضها، ولم أعرف غيرها واللـه على ما أقول شهيد. لا أعرف كيف اختمر في عقلي هذا الوصف؟ كيف وضع الشيطان على لساني فجأةً وبلا ترتيب دفقات من الكلام الأسود جرحتُها به من دون أن أدري. بيتها الذي لم تهدمه سنوات الإرهاب هدمته كلماتي الحمقاء. لم أكن أقصد إطلاقًا لكن انطلقت كلماتي كالرصاص ففتَّت في عَضُد حصنها حتى طرحته أرضًا. أتدرين يا فاطيما، حتى من كانت صنعتُه الكلام قد يقتله الكلام من دون أن يدري. مَنْ علَّم اللغة لأجيال يمكن أن يصبح أحمق يصيب رأسه بسهم الخطابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

31

في السبت يبدأ الأسبوع، فلنجعلها صفحة جديدة إذن. خبزت الكسرة صباح الجمعة، لن تحتاج لقلي البيض صباح الغد، أو بالأحرى تحايلت كيلا تقف طويلًا أمام النار قبل الذهاب للجامعة بعد انقطاعها عنها. الكسرة اليابسة مع الجبن والزيت والزيتون والمُربَّى إفطار شهي لا يطلق الأبخرة التي تعشش في الشعر وتجعل رائحتها كمطبخ المقصف.

الجمعة ظهرًا وضعت في حقيبة الحمَّام فوطة كبيرة وبعض الملابسِ الداخلية النظيفة مع الصابون وكيس الحمام الخشن (مغربي الصنع)؛ لإزالة ما علَق بجِلْدها من خلايا ميتة تركتها تتراكم لوقت طويل. مرت بحانوت العطار في طريقها وابتاعت بخمسين دينارًا مسحوق الياكسة المزيل للشعر وعلبة غسول، ذلك الطمي الأخضر الذي ستعجنه الكيَّاسة بالماء الدافئ وماء الورد؛ لتسكبه على جسدها قبل الغسلة الأخيرة لتمنحها نضارة طال انطفاؤها.

على باب الحمَّام يمتد حبل منشور عليه قماشة بيضاء؛ إشارةً إلى أن الآن وقت النساء. تستكشف عالم الحمام من جديد، لم تقاطعه حقًّا لكنها لم تكن تواظب على زيارته أسبوعيًّا كالأخريات. كانت تذهب متعجلة قلقة، فهو يأخذ من وقت الدراسة، كما أن تهتُّك البعض بداخله كان يثير حفيظتها فكانت تغير الحمَّامات؛ كيلا يصبح وجهها مألوفًا للمترددات على نفس المكان.

اختارت اليوم أقرب الحمامات لنفسها بعد أن قررت ألَّا تغيره ثانية. ستنقُد الكيَّاسة مائتَيْ دينار لتفركها جيدًا، ثم تفرد لها الياكسة على ساقيها وذراعيها لتذهب بزغبها بعيدًا فيظهر جلدها برَّاقًا. للمرة الأولى تستمتع بأحاديث النساء المُشِينة، بل ضحكت عندما ألمحت إحداهن بأنها أتت لتغتسل مما أصابت من جنابة إثر اجتماعها بزوجها بالأمس، فعاجَلتها أخرى بأنها لو فعلت مثلها لأضاعت راتبها كله يوميًّا في الحمام.

لم تكن تلك الساعة خانقةً كعادتها، استمتعت باكتشاف هذا العالم الذي اعتادت أن ترى قشرته من دون الغوص فيه. النساء يجئن بلباسِ بحرٍ من قطعتين لم يعُد يُستخدم اليوم بعد أن افتقدن كلهن الأمن في البر والبحر. يتَّخايلن بأجسادهن في صالة مغلقة خافتة الضوء تتعسر فيها الرؤية بسبب البخار. بداخل كل واحدة فتيلة خوف تداريها بضحكات عالية ونكات بذيئة بصوت مرتفع، فلا تدري نفس متى يجيء أجَلُها وكيف. رائحة الصابون والسِّدْر تمتزج بروائح شامبوهات فرنسية مع مزيل عرق رخيص فَجّ، في الحمام يتساوى الجميع حتى في العُرْي.

خرجت من الباب وهي تزيح الملاءة البيضاء وتستقبل هواء الشارع، وهي متخلصة من خلاياها الميتة كلها ما علق منها ببشرتها وما جثم طويلًا فوق روحها.

الشمس لم تغرب بعد، الألوان أزهى من ذي قبل، يخرج من مذياع قريب صوت الحاج دحمان الحراشي منشدًا:

سبحان اللـه رأت عيني زوج حمامات في قصر..

مقابلين اسما والبحار.

غالبت ساقيها في رغبتهما في التعجُّل بينما عيناها تتعلقان بواجهات الحوانيت، كأنما تمر من هنا للمرة الأولى. صابيرة الحفَّافة تدخن سيجارتها أمام صالون حلاقة النساء الخاص بها، هزت لها رأسها بتحية مع ابتسامة ردتها المرأة بأحسن منها، قطعت الشارع الصغير متوجهةً إليها رأسًا، لم تخطط لتلك الزيارة لكنها بلا شك ستكتمل أناقتها إذا كوت شعرها اليوم وقصت أطرافه الشَّعِثة.

رفلت في ملابسها بسعادة طفل صبيحة يوم العيد. تتُّورة لمياء الرمادية الفاتحة مع القميص الوردي لا شك أجمل من سروالها الچينز الذي أصبح مؤخرًا جزءًا من كينونتها. استدارت أمام المرآة مرات ومرات حتى اطمأنت لمظهرها. أدخلت قدميها في حذاء جلدي بالغت في تلميعه. لم تُفسد منظر ساقيها بجورب، فما أفلتته الياكسة من زغب انتزعته كيَّاسة الحمام من لحمها بالشمع اللزج، هكذا تعمل المائتا دينار ما بُذلت لأجله.

دخلت الجامعة تترقب، هل أصبحت محطَّ الأنظار بهذا المظهر المختلف؟ أحبطها قليلًا أن لم يلتفت لها أحد، لم تتوقف كثيرًا عند هذه النقطة فهي تتجمَّل وكفى؛ كُنْ جميلًا تَرَ الوجود جميلًا. تبادلت ابتسامات سريعة مع الزملاء، لاحظت أن الفتيات يرمقنها أكثر من الفتيان، لم تعبأ بهن قبلًا فقد كانت فريال كل ما تملك من أصدقاء، ستتخذ من الصديقات الكثير قريبًا، لا داعي للعجلة الآن.

جاءت جلستها بمحاضرة المغناطيسية بجانب لحسن، أحد ظرفاء الدفعة الضاحكين، لا يُعيبه كثرة الرسوب فوالده ميسور الحال، تاجر أجهزة كهربائية بالحاميز لديه من الأموال ما يكفل له الرسوب ما شاء. سألها عن إثبات شرحه الأستاذ في محاضرة الثلاثاء الماضي ويكمله اليوم، لما وجدها لا تعرف أيضًا أجابها مازحًا:

- لا بأس، نفهمها معًا العام القادم في نفس المحاضرة.

ضحكت لدعابته فنظر لها الأستاذ مؤنبًا، سرت بداخلها نشوة المارقين ساعة خروجهم عن القانون، سعادة بسيطة تكتشفها اليوم علَّها تكون بداية موفقة لاكتشافات أخرى.

ترددت إن كان مزاحه معها يُصنَّف كاهتمام خاص، حسم الجدال عندما انتهت المحاضرة فهُرع للخارج ليدخن سيجارته من دون سلام.

"سيوليني أحدهم اهتمامه قريبًا، لا داعي للعجلة الآن".. هكذا حدثت نفسها.

أخذت الطاكسي الجماعي الحضري إلى ساحة أول ماي في طريقها إلى مشغل أبيها. في المرة الماضية أحضرت له زجاجة نبيذ، اليوم تدخل عليه وبيدها لُفافة أكبر.

استقبلها ببشاشة ربما كانت هي منبعها، فاليوم هي باسمة وتشعُّ جمالًا في زيِّها الأنثوي المُقترَض. رأته جالسًا أمام باب حانوته يحتسي الشاي مع سي الطاهر بائع

النظارات وجاره القديم. يدور بينهما ذاك النوع من النقاشات الحادة بين رجلين تشعر أنهما سيشتبكان بالأيدي، لكنهما يظلان على هذا الحال لساعات يوميًّا.

قبَّلت الشيخين، وداعبها سي الطاهر قائلًا إنها صارت عروسًا جميلة لكن ليس عنده فتيان للزواج. ضحكت فأردف:

- لو كان لك أب غير سي صالح لتقدمت لك بنفسي.

لطمه صالح على كتفه مُعقِّبًا:

- تلزمك الدراهم لشراء القبر.

انصرف إلى حانوته متمهلًا وهو يمسح دموع ذرفها من كثرة الضحك. أدخلت فاطيما أباها لداخل المشغل ووقفت خلف الطاولة الكبرى، كسياسي يحتمي بمنصته القصيرة حتى تأتيَه شجاعة الخطاب. أطرقت لحظةً لتستجمع كلمتها، ساد صمت الشارع على الموقف حتى العصافير تضامنت معها ولم تنبس بأدنى زقزقة. افتعلت ابتسامة لتخفي توترها فتقاربهما ما زال حديث العهد.

- اليوم استعرتُ من لامو تنُّورة وقميصًا، وأعجبني جدًّا ظهوري كفتاة وسط الجامعة. أحتاج مساعدتك لتفصيل ملابس من أجلي. عرَّجتُ على أول ماي واشتريت الأقمشة، فقط أريد أن تقترح عليَّ التصاميم من مجلاتك الفرنسية وتجعلني أبدو كواحدة من تلك الفتيات المتلألئات في الصور.

تجهَّم صالح رغم حماستها، فقَدَ كل شغفه وما عادت به حماسة للتفصيل. يكتفي بتقصير سروال جديد أو توسيع كَنْزَة ضاقت على صاحبها وضاق حاله فلا يستطيع شراء أخرى. أما أن يختار تصميمًا يرسمه على الورق الشفاف بمقاييسها ثم يقصه فلا تهتز يده ويحيكه يدويًّا لتجربة مُرَّة، فيقص من هنا سنتيمترًا ويرفع الجيب قليلًا، فهذا ما لا يُطيقه البَتَّة، لقد كان هذا عمل صبيانه منذ سنين وقت كانت البلاد بلادًا، وكان العباد عبادًا.

سألها متململًا:

- كم مترًا اشتريت للقميص؟ وللتنورة؟ أجابته:

- اللعنة، القماش يكفي فكيف الفكاك؟

- أريني القماش.

قالها مادًّا يده متحسسًا الخامة بين سبَّابته والإبهام. لقد رأى أفضل منها بالطبع لكنها ليست بالرديئة على الإطلاق.

- ولماذا لم تشتري الجاهز مثل الأخريات؟

ابتلعت جملة: "ومن أين لي بثمنه؟" فخرجت من فيها:

- لقد سئمتُ اتباع خطوات الأخريات، أنا الوحيدة التي تستطيع أن ترتدي من "شي صالح" حتى وإن لم أمتلك النقود.

بعد أن تيقنت من استسلامه حتى كادت أن ترى المنديل الأبيض يرفرف بين إصبعيه، عاجلته بطوق النجاة:

- سأساعدك طبعًا.. لن تعمل وحدك. لا تنسَ أني أجيد الرسم الهندسي. فقط أرني المجلات وقل لي أين تضع الورق الشفَّاف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

32

دخل محسن حجرة المُدرِّسين صامتًا. قلَّ كلامه مؤخرًا، لا ينطلق إلا في حصصه. أما وقد هجرته سناء واختفت فاطيما مجددًا لم يعُد هناك من يدير عجلة الحوار لتستمر.

طاولة كبيرة تحدُّها مقاعد خشبية من الجانبين كلها فارغة، إلا من واحد فقط تشغله السيدة رتيبة مُدرِّسة الموسيقى التي بادرته ما إن ظهر:

- أخيرًا ظهر أحد، كدتُ أُجنُّ من صمت هذه الغرفة.

نظر حوله متسائلًا:

- عندك الحق، أين ذهبوا؟

- المولد غدًا، الأربعاء. كل من أنهى حصصه ترك مبكرًا ليسافروا لبلداتهم. عطلة طويلة يجب أن تُستغَل.

عبس وجهه للخبر. حقًّا مولد النبي غدًا، والخميس والجمعة عطلة نهاية الأسبوع. أيام العطلات لا تجري كيوم العمل. لاحظت مسحة التعاسة على وجهه فعاجَلته:

- أستطيع أن أخمِّن أنك لن تفعل مثلهم، لن تعود إلى مصر من أجل يومين قطعًا.

ضحك مجاملًا ولم يُعقِّب، لا يعرف بماذا يمكن أن يجيب فاستطردت:

- أنا أيضًا لن أعود، أخشى الطرق. الأكمنة الزائفة صارت أكثر من الحقيقية، يوقفك الدَّرَك لمراجعة أوراقك، فتارةً يكونون من الجيش حقًّا وتارةً أخرى يكونون من السفاحين ويقتلونك. سألزم داري، هكذا أسلَم.

لم يستطع مقاومة حماستها للكلام فبادلها:

- أتعرفين؟ أنا وُلدت بالمولد النبوي.

ابتسمت بتلقائية وارتفع صوتها:

- يجب عليَّ أن أعد لك الطمينة إذن.

يعرفها جيدًا، تلك الحلوى المُعدَّة من السميد والزبد واللوز والعسل والقرفة. يعدُّونها للأم بعد الولادة لتعينها على ما فقدت من الدم، كما يعدونها في المولد النبوي كأنهم يشاركون آمنة بنت وهب فرحتها بالمولود الجديد، النبي.

تبسَّم من قلبه، يحب الطمينة أكثر من الحمصية وحلوى المولد التي كاد أن ينساها.

- الحق أني أحبها وأنتظرها من السنة للسنة. أو إذا وُلد مولود للجيران وأتحفونا بطبق.

- وها قد أتت السنة ولا حاجة بك لانتظار الجيران.

ظهرت الحيرة على وجهه، كيف سيأكل طمينتها، هل ستقابله في الطريق وتعطيه صحنًا ليعيده لها فارغًا يوم السبت؟

وقفت رتيبة ببهجة مُدرِّسة الموسيقى وقالت:

- على كل الأحوال يجب أن نحتفل.

لم تترك له فرصة الرد واتجهت نحو دولابها تبحث في أشرطة التسجيل. دقائق وكان صوت الهاشمي قروابي يصدح برائعته: "البارح كان في عمري عشرين". تحرَّج محسن كثيرًا من الموقف، فالصوت مرتفع، وهو مدرس له وقاره ومكانته، أي عيد ميلاد الذي يحتفل به وهو من تجاوز الخمسين؟ ثم من ذا الذي يحتفل بعيد ميلاده الهجري أيضًا؟

بيد أن رتيبة وهي في عقدها الخامس لا تعترف بما يُخجله على ما يبدو، فها هي تهز رأسها بمنتصف الحجرة ناظرةً إليه غير عابئة بما يمكن أن يستتبع هذا الموقف غير المفهوم. أمعنت في الاندماج فكانت ترفع يديها وتغمض كلما كرر المطرب جملة: "البارح كان في عمري عشرين يا حسرة على عشرين".

تحلَّل من خجله قليلًا عندما أدرك أنه لا أحد مهتم حقًّا بما يدور في حجرة المدرسين، لا الناظر ولا أحد من الطلاب أتى ليعرف مصدر هذا الصوت.

أمسكت رتيبة بجنب تنُّورتها وأخذت تديرها يَمنةً ويَسرةً وهي تردد مع المطرب. ثم نظرت إليه وكأنها تحدثه عندما وصلت القصيدة لبيت:

أبدعت في الأريام عذابي لفظي رقيق وعربي.

فهو صدقًا صاحب اللفظ العربي في هذه المدرسة.

تمايل قليلًا أمام اهتزازها فأمسكت بيده تحثه على مشاركتها الرقص. اتسعت ابتسامته الخَجْلَى وهو لا يحرك سوى يده وهي تدفعه للأمام والخلف علَّه يهتز مثلها. اتسعت خطواته رويدًا رويدًا ووجهه يزداد احمرارًا مع كل حركة. ارتفعت عقيرتهما بضحكٍ عالٍ مع نهاية الأغنية، ربما كانت أول مرة يرقص في حياته لو جاز تسمية حركاته البندولية بالرقص.

تنهدت قبل أن تؤمِّن على ما قاله قروابي:

- واللـه غير البارح صح كان في عمري عشرين يا محسن.

أجاب مُؤكِّدًا جملتها:

- يا حسرة على عشرين يا رتيبة.

أعادت الشريط لدولابها وجمعت متعلقاتها في حقيبتها، ثم تداركت أن الأمر لم يُحسم بعد.

- الطمينة، تأكلها عندي أم آتيك بها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

33

التنُّورة للحق أكثر من رائعة، والقميص أيضًا، المعنى الحرفي لـ "صُنعا خصيصًا من أجلها".

كما طلبت منه نفَّذ، الملابس مطابقة حرفيًّا لصور المجلات، حتى هي صارت أجمل كلما ابتسمت فرحة بمظهرها الأنيق.

نظرات الإعجاب واضحة، تقرؤها بسهولة في عيون الزميلات صافيات الأنفس. لا يخلو مكان من الحاقدين، لا ضير، فنظرات الحقد هي في باطنها اعتراف بالتفوق.

وحدها زاكية هي مَنْ سألتها مباشرةً من أين ابتاعت زيَّها الجديد. مثلها لا تعرف الغلَّ فقد ملأ الجمال كل فراغاتها حتى لم يبقَ للقبح أي مكان يسكنه. كساها الفخر وهي تجيبها بأنها هي من حاكته بنفسها. ويبدو أن الشغف الذي فاح من صوتها كان مُعديًا، حتى إن حوارهما لم ينتهِ قبل أن توقِّع معها صفقة رداء بلا أكمام لترتديه في الجامعة.

ستأتيها غدًا بمجموعة من الصور لتختار من بينها. شرح لها صالح كم مترًا يحتاج وأسماء الأقمشة المناسبة لفستان صباحي. بدا أكثر حماسةً ويقظةً هذه المرة بعكس إحجامه عندما أتته بأقمشتها. سرت في عروقه أحاسيس كاد ينساها. ما زال قادرًا على الإنتاج، أعجبت فتاة بتفصيله رغم وفرة المعروض من الملابس الجاهزة. فهم من فاطي أنها ثرية، يمكنها شراء ما شاءت لكنها اختارته هو ليحيك رداءها. أعادته بثقتها عشر سنوات للخلف فعاد كما كان، كهلًا يقظًا لا تنقصه الدماء الحارة.

شعرت أن صوته أكثر حيوية، يبحث معها في المجلات ويوصيها أن تحافظ عليها. فوجئت به يمد يده إليها بسيجارة، رفضتها مذعورة، لا تدخن أمامه رغم أنه بالقطع يعلم من رائحتها أنها قد ورثت تلك العادة الذميمة منه. أتته بقطعة القماش كأنها تحمل كنزًا لهما تقاسماه معًا بنشوةٍ طال غيابها. فرد لوحًا من الورق الشفاف على منضدته الكبيرة وبدأ يشرح لها الرسوم الأساسية، وما يطرأ عليها من تجديدات بحسب التصميم المطلوب؛ فالسيدة تريد خطًّا واضحًا من الخيط يبدأ من الحمَّالة حتى نهاية التنورة؛ لذا يتعين علينا أن نقطع من هنا ونزيد سنتيمترًا من كل جانب. نفتح الزاوية قليلًا من هنا ومن هنا، فصدور وأرداف العرب ليست كالأوروبيات. القصُّ واستخدام الماكينة تتركهما له، فيداه ثابتتان كالمسطرة أما هي فما زالت خرقاء.

حاكت الأطراف بخيطٍ فجِّ اللون يدويًّا لتسهل إزالته بعد إعمال الماكينة، لم يكتمل بالطبع وينقصه الكثير إلا أنها ألبسته بعناية للشاخص الخشبي وابتعدت قليلًا لتُقيِّمه بعين الخبير. تهلَّل وجهها لرؤيته متمايلًا مع تضاريس التمثال وشعرت أنها على أول طريق التعلُّم. نظرة قصيرة لوجهها تكفي لأن تتفرج أساريره لرؤية الفرحة في عينيها.

هَمَّ بالخروج ليحتسي الشاي مع سي الطاهر كدأبه في مثل هذا الوقت فعاجَلته:

- لا تَطِل عند صاحبك، فنحن لن نبرح حتى ننتهي منه.

غلبتها نشوة الانتصار فأردفت:

- لا تنسني في كأس شاي معك وسيجارة، فلدينا من العمل الكثير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

34

حلق شعره مساء الأمس، صالونات الحلاقة تغلق في المولد النبوي، يُفضل أن يذهب بكامل أناقته. استيقظ مبكرًا، بالأحرى لم ينَمْ جيدًا، تشغله فكرة الذهاب بمفرده إلى منزل امرأة. زميلة أي نعم، لكنها امرأة وهو ذاهب إلى منزلها. لو عادت معه سناء لما وُضِع في هذا المأزق، ربما لو لم تختفِ فاطيما أيضًا لوجد من يحدثه ويقطع معه ذلك الفراغ الموحش.

مؤخرًا صار يرى اليوم كطرقة طويلة تشبه ممرات المستشفيات؛ حائط كالح اللون، بلاط متآكل، إضاءة خافتة قذرة لا تُمكِّنك من رؤية نهاية هذا الممر بوضوح. يسير فيه متمهلًا آملًا في بلوغ منتهاه. يتسرى في رحلته بالقراءة ومتابعة التلفاز وشرب الشاي الأخضر على رصيف المقهى القريب. كل هذا لا يساعده على عبور الممر ركضًا، فيظل يتسكَّع بداخله حتى حلول المساء واقتراب رحلة اليوم من نهايتها. حلق ذقنه، ثم راجع الحَلْقَة متفرسًا في وجهه عبر نظارة القراءة التي تساعده على رؤية سفاسف الأمور.

لا يمكنه الذهاب صفر اليدين. تسكن في القبة القديمة، ربما مرَّ بحلواني الصومام قبل أن يتجه إلى منزلها. ما فائدة الحلوى وهي قد أعدت الطمينة خصيصًا له؟ الملابس والعطور هدايا شخصية جدًّا ربما أسيء فهمها. الفاكهة أليَق بزيارة المرضى. التمر خارج الموسم الآن وما يُباع في ساحة الشهداء مخزون قديم.

لم يبقَ أمامه سوى الأزهار رغم صورتها النمطية كهدية العاشقين، فهي على كل حال ما تفتَّق عنه ذهنه. اتخذ اتجاه حيدرة حيث بائع الورد في الميدان، لا يغلق أبدًا حتى في المولد النبوي، لا يخشى أن تذبل أزهاره، بل هي تجارته الأخرى التي يحرص على ألَّا تذبل أبدًا؛ الفرنك الفرنسي والدولار الأمريكي.

مر بجانب السفارة الأمريكية، تلك القلعة البيضاء الحصينة التي يحرسها جنود البحرية الأمريكية بأجسامهم المرعبة ومدافعهم الخفيفة المعلقة في الأعناق. يشعر بالإهانة لرؤيتهم يستقدمون حراسهم بالطائرات، أما يستطيع رجالنا القيام بتلك المهمة البسيطة؟ في الحقيقة لا يقع اللوم على الأمريكان، فمن يولي ثقته لمن عجز عن حماية أبنائه؟

شعر بسخافة منظره وهو منتظر أمام الباب بعد أن دق الجرس، بذلته البُنيَّة مع شعره الرَّمَادي المبتل من المطر لا يتفقان مع الأزهار الحمراء التي يحملها في يُمناه، تلك الغرابة التي استشعرها في منظره أورثته قلقًا فوق قلقه.

امتاز استقبالها بحفاوة شديدة ألقت في قلبه أُلفةً طال عهده بافتقادها. رويدًا رويدًا بدأ يرتاح في مجلسه، صلَّب التوتر عضلاته في أول الزيارة، بيدَ أن خفَّتها وعذوبة حديثها منحتاه الاسترخاء.

المنزل تقليدي من حيث التصميم، طرقة أمام الباب تفضي إلى صالة يجلسان فيها الآن. السفرة في الداخل قريبة من المطبخ. قضبان حديدية تغطي كل الشبابيك لكنها

لا تمنع صوت المفرقعات التي يملأ الأطفال بها الشوارع ضجيجًا. البارود ومشتقاته هو الأكثر رواجًا في أسبوع المولد، كأن ما بالبلد من تفجيرات حقيقية لا يكفي.

ست ساعات قضاها عندها. كان يعتقد أنه سيأكل وينصرف. أعدَّ في عقله مواضيع محفوظة ليناقشها فيها على المائدة كنوع من المجاملات، لم يحتج لأي منها. صور الأبيض والأسود تملأ الجدران، لم يستطع معها التكهن بحالتها الاجتماعية، توقف قليلًا أمام صورة مدرسية لها وهي طالبة مكتوب بأسفلها "إكمالية بوعودية سعيد". لمحته يتأملها محاولًا تعيين رتيبة بين التلميذات، كانت تحمل قدرًا تفوح منه رائحة شوربة الفريك وتوجهت نحوه بعفوية بدلًا من أن تذهب به إلى السفرة:

- تحاول إيجادي أم تعجبك بجاية؟

- هذه بجاية؟ ظننتك من وهران.

- لماذا؟ هل أبدو كالوهرانيات؟

- في الحقيقة لا، لكن اهتمامك بالموسيقى هو ما جعلني دائمًا أعتقد هذا.

- وإن طهوت لك التليتلي ([22])، تظنني يهودية؟

ضحك من قلبه على سذاجته. أكملت:

- هأَنْتَ تعرف أن أهل وهران يحبون الموسيقى، ليسوا وحدهم وسأشرح لك، سأعطيك حصة موسيقى مجانية. ماذا تعرف عن بجاية إذن؟

فتحت خفَّة دمها الباب إلى محاولة غَزَل بريئة جدًّا فأجابها:

- الزين كيما الزيت ماتلقاهش غير في بجاية.

يبالغ أهل بجاية في فضل زيتونهم وزيته على باقي الزيوت، كما يباهون بجمال فتياتهم فيشيعون أنه لا جمال ولا زيت غير عندهم.

لم تحمرَّ وجنتاها للإطراء بل ضحكت ملء شدقيها وضاقت حدقتاها، وهي تدعوه ليتبعها إلى المائدة: شوربة الفريك والبوراك وأطباق الزيتون والهريسة الصغيرة، الخبز المقطع وطاجن اللحم وسلاطة الفُلْفُل المشوي المزدانة بالبيض المسلوق على سُفْرة منمقة بعناية.

طفا البِشْر على وجهه رغمًا عنه فأرضى غرورها، عاجَلته بالقاضية وهي تقول:

- الطمينة جاهزة لكننا سنأكلها مع الشاي بعد أن نُجهِز على كل هذه الأطباق.

- ... ...

- إذن أنت ترى أن الموسيقى حرفة وهران فقط؟ (سألته وهي تمسح فاها بمنشفة المائدة).

- لست متخصصًا ولكني أعرف أن الموسيقى الجزائرية وهرانية الأصل.

- هذا فقط الرَّاي، لا أحبه كثيرًا. ولكنّ لدينا ألوانًا أخرى؛ الشعبي والأندلسي والمالوف مثلًا.

- سامحيني فلا أعرف الفرق بينها.

- الشعبي مثل دحمان والعنقا وقروابي الذي رقصنا عليه معًا بالأمس.

- لا تذكِّريني أرجوكِ. (أجابها وهو يضحك خجلًا).

- ولماذا تريد أن تنسى، لم تكن بشعًا. لست راقصًا محترفًا أعرف هذا لكنك ستنجح إذا تعلمت.

- مَنْ رقصَ نقصَ يا رتيبة، أتعلمين!

- من قائل هذه العبارة؟ ولماذا تصدقه؟ ماذا خسرت بعد رقصة الأمس؟

- لم أخسر، بالعكس، فقد ضحكنا معًا واحتفلت بيوم مولدي الهجري للمرة الأولى مرة في حياتي.

- لا تنصت إلا لقلبك إذن. (قالتها وهي ترفع كتفيها كمن يقنع طفلًا ببدهيَّات الحياة).

- لقد شاهدت مطربًا جديدًا يغني في فرنسا، كان على التلفزة في الأسبوع الماضي. يغني فيما يشبه الحديقة، بلا فرقة موسيقية فقط فتيات يرقصن.

قالها محاولًا تغيير دفة الحديث كيلا تصمم على تعليمه الرقص. لن يستطيع أن يقابل حماستها بالرفض فتمنى في صدره ألَّا تفعل.

- نعم شاهدته، خالد حاج إبراهيم أو الشاب خالد كما يسمي نفسه. كان يعمل ميكانيكي سيارات بوهران وها هو اليوم مطرب معروف في فرنسا. ورتيبة خريجة المعهد العالي للموسيقى محبوسة بالقبة وتعدُّ البوراك والحَسَاء لفخامتكم.

تتغير تعبيرات وجهها كالممثلات. افتعلت امتعاضًا مبالغًا فيه وهي تتحدث عن هذا المطرب، ثم تحولت لملامح باكية وهي تنعي حالها قبل أن تنفجر في الضحك وهي تُنهي جملتها.

أمعن النظر في ملامحها، جميلة بحق. ملامحها البجاوية المليحة، شعرها المائل للحمرة ووجهها المثلث الأبيض وعيناها حالكتا السواد وشفتاها المكتنزتان المائلتان للحُمْرة. أما قوامها الأشبه بطالبات الجامعة، فلا يبدو للزمن تأثير عليه.

أكلا وتحدثا وشبعا وانتعشا. لم تطبخ منذ زمن طويل كما لم تأكل بمثل هذه الشهية من قبل. ولا يدري هو أجودة الطهو أم الصحبة هي ما أمتعته فنسي أنه غريب في بيتها وتصرف كصاحب بيت. المهم أنها مدعوَّة عنده الجمعة وعليه أن يُعدَّ لها أطباقًا مصرية. فها هي الجزائر تحلو والحياة مريرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

35

رفلت في قفطان زهري اللون يتوسطه تطريز مائل للصفرة يقسمه لنصفين من الأمام. تفترق ضفَّتا التطريز عند بداية الصدر لتلتقيا ثانيةً عند آخر غطاء الرأس. تبادلت عبارات مجاملات مستهلكة مع محاسبة الحمَّام، زبونة دائمة وتجزل العطاء يَمنةً ويَسرة. تذكَّرت يوم أتت هنا لتبحث عن عمل أيًّا كان، فسبحان الذي يغير ولا يتغير!

قاعة مؤتمرات العرب بمولانبيك، الحمام المغربي ملاصقًا لجدار المسجد الجانبي يقع، تظنه نفس الحائط وإن لم يكن. باب صغير مستطيل يعلوه عقد أندلسي على شكل نصف دائرة مكتوب فوقها بالعربية: "حمَّام لقمان". تدخل من الباب إلى الساحة الداخلية؛ بلاط قديم متآكل في الأرضية تتوسطه نافورة رخامية معطلة لا تتناسب مع ضيق الساحة ولا مع حقارة دهان الحوائط، تدور حولها لتصل للمحاسبة الجالسة على مكتب خشبي قديم أدراجه مملوءة بجرعات الصابون البلدي وعبوات صغيرة من الغَسُول والأكياس المغربية السوداء شديدة الخشونة، تفضل عليها الجزائرية الملونة الناعمة.

أعطتها بضع فرنكات وأخذت منها مفتاحًا ذا رقم معقود في رباط مطاطي ارتدته كالسوار، وصعدت السلم الضيق المؤدي للدور الأول تحمل كيسًا بلاستيكيًّا به لوازمها.

استقبلتها فتاة جديدة (مسئولة خزائن الملابس)، تبدو أكبر من فاطيما بقليل، لهجتها الوهرانية الصعبة تشغلك عن جسدها مؤقتًا حتى تلتفت لعودها البديع فتنسى جبهتها العريضة التي تشي ببلاهتها.

ناولت باهية منشفة كبيرة، كادت أن توقعها لو لم تتداركها المرأة. حاولت التخفيف من توترها، سألتها عن اسمها أجابت: "يامينة". "من أين؟"، "من تِلِمْسان". جاملتها بعبارة: "خيار الناس".

دخلت خلف ستار صغير لتخلع الكثير من ملابسها، وضعتها في الكيس ثم لفَّت نفسها بالمنشفة وعادت إلى يامينة التي أخذت منها شنطتها والمفتاح. بحثت طويلًا عن رقم الخزانة، جديدة هنا بالقطع فضلًا عن كونها خرقاء. في ظروف أخرى ما كانت باهية لتسكت على بطء وحمق الفتاة، بيد أنها اليوم ليست على ما يُرام.

دفعت الباب الخشبي لتدخل ساحة الحمام، الأحواض الرخامية متراصَّة في وسط الحائط تكاد تتلاصق، أمام كل حوض مقعد حجري صغير مُثبَّت في الأرض وفوقه صنبوران نحاسيان أحدهما بارد والآخر ساخن. لم تفاضل بين الأماكن كعادتها واعتلت الأقرب، لا أحد بالداخل.

صباح الثلاثاء يكون الحمَّام خاويًا، ليس كازدحام مساء الجمعة. أخذت تصبُّ الماء فوق رأسها في شرود، عيناها تنظران للاشيء، تملأ دلوها الصغير وتفرغه فوق رأسها بحركات ميكانيكية متكررة. يدور بعقلها حوار شائك يحتدُّ أحيانًا فتتحرك

شفتاها من دون أن تنبس. فتحت علبة صابونها واغترفت كتلة سوداء تضج برائحة زيت الزيتون، وأخذت تدلك بها جسدها شبه العاري بحركات حفظتها بالتكرار. دخلت غرفة البخار كالمسحورة، افترشت الدكة الخشبية المقابلة للفَوَّهة الساخنة وألقت رأسها للخلف. الضباب المنتشر حولها أقل كثافةً من هذا الذي يعجُّ به رأسها.

لقد بات حلم الأوراق قريبًا، نعم من الممكن أن تصبح بلچيكية بعد أن كانت متهربة من السلطات. تستطيع تقنين وضعها. خمسة وعشرون ألف فرنك هو كل المطلوب. عشرة آلاف يأخذها موظف القنصلية الموكل بأمور الزواج. سيأخذ الطلب وفي خلال أسبوعين يختمه بالموافقة. الدراهم نظير أن يتجاوز عن الاستعلام عن الحالة الاجتماعية لباهية. خمسة عشرة ألفًا لمن سيتزوجها على الورق. مَنْ تحديدًا؟ لا يهم، عربي مُجنَّس يحتاج للنقود أكثر من حاجته لبيت وأسرة. ستمنحه أيضًا راتبًا شهريًّا ألفًا أو ألفين طيلة مدة الزواج حتى لا يطلقها قبل تمام الإجراءات، لن يشكل هذا المبلغ أزمة لها، الدفعة المقدمة هي العقبة.

جست نبض زبائنها الدائمين فلم تجد فيهم من تحمس للزواج بها. لم تلحَّ في الطلب خشية أن تخسرهم كمصدر رزق دائم، كان بوسعها توفير خمسة عشرة ألف فرنك والراتب الشهري لو قبل الزواج منها أحدهم. لا بأس، ستجد وسيلة بلا شك. لقد نجحت في كل ما مرت به حتى الآن، لن تُعييها الحيَل وقد بات الحُلْم وشيكًا.

لن تسعفها أجرتها المعتادة من جلسات التدليك ولا الاستثنائية حال الطهو في الحفلات. حقًّا تتقاضى مبلغًا محترمًا وقتئذ، بيد أن النفحات غير المنتظمة لا يُعوَّل عليها. أيضًا حصة زهرة من نقل الحشيش لن تسعفها، تمنت لو كانت شابة غضَّة يشتهيها الأربعينيون والخمسينيون، فزبائنها لا يشتهون ولن يدفعوا فيها أكثر مما يدفعون.

آه لو كانت أصغر عشرين سنة فقط لما ترددت لحظة في بذل نفسها لقاء مبلغ أكبر، فمن يدفع خمسمائة ليستعيد لحظات من شبابه في البلاد يدفع ألفًا أو يزيد إن كانت رفيقته شابة متهتكة عارية. ألا لعنة اللـه على العمر الذي جرى بنا ولم نلحقه.

تبدَّل حالها فجأةً من شرودٍ إلى يقظة ومن تراخٍ إلى عجلة. بالغت في الإسراع حتى إنها خرجت وشعرها يقطر ماءً. توجهت رأسًا نحو يامينة، ما إن استعادت كيس ملابسها حتى أخرجت منه مائتَيْ فرنك منحتها للفتاة وعاجلتها:

- لم أرَكِ هنا من قبل، أجديدة أنت في بروكسل؟

- نعم خالتي هذا أول شهر لي.

- حارقة ([23]) بالطبع، لا أوراق لديك.

- لو كنت ذات أوراق لما عملت بالحمَّام.

- عذراء؟

خرجت من فم باهية كالطلقة، حتى هي لم تفكر في طريقة ألطف للسؤال.

- كان لي صديق في تلمسان وكنا ننوي الزواج.

أجابت يامينة وهي على وشك البكاء.

لم تتركها باهية لتكمل جملتها، أمسكت بيدها آمرةً إيَّاها بالصمت والإنصات:

- بجوار صالون كريمة الحفَّافة، اسألي عن مطعم شي سعيد. غدًا في الثامنة أراكِ هناك. أنت مثل ابنتي ولا يمكن أن أتركك من دون أوراق، هذا خطر... خطر جدًّا.

وانصرفت مسرعةً إلى الستار ثانيةً لترتدي ملابسها قبل أن يراها أحد، غير عابئة بأدعية يامينة لها بالصحة والستر وراحة البال.

شي سعيد، ذلك المطعم متوسط الحال ذو الطراز الذي ترى دومًا أفضل منه لكنك تعود إليه؛ لأنه يُذكِّرك بالمطاعم المتوسطة في بلدك والتي تذكرك بدورها بطعام جدتك. دخلت غير مترددة ومسحت الصالة الصغيرة بعينيها فسرعان ما وجدت باهية في ركن بعيد. توجهت نحوها مندفعة، فالوعد بالأوراق فرصة قد لا تسنح ثانية. المنضدة فارغة إلا من طبق زيتون وآخر هريسة وسلَّة خبز لم تمتدَّ يد باهية عليه بعد.

حاولت التودُّد إلى الفتاه فبادرتها:

- إذا استوحشت الحمود والسيليكتو فلديهم منهما الكثير.

ابتسمت يامينة مستسمحةً إياها أن تطلب لها مثل ما ستتناول هي. لم تأتِ لتأكل، كما أن الحمود لم يكن أبدًا شرابها المفضل. للحق هي لا تشتاق للجزائر، ليس لحداثة عهدها ببلچيكا ولكن لشدة ما قاسته هناك. تحاول نسيان البلاد، فلا حاجة بها لزجاجات الذكريات تلك.

أتت صاحبة المطعم على الطاولة لترحب بضيوف باهية، شعرت يامينة على الفور بأنها بصحبة سيدة أرستقراطية من سيدات المجتمع. امرأة كهذه إذا وعدت بالمساعدة لن تُخلف.

اللحم طيب فعلًا، لم تُقبل بنهم على البطاطا المقلية، تأكلها يوميًّا بجانب ساندويتشات التونة بالبيض التي يعدُّها مكرم التونسي ويسميها كاسكروت. أعطتها باهية سيجارة ثم شرعت في الدوران حول موضوعها:

- شاهدت بنفسي خبرتك في أمور الحمام ولمحت فيك سيدة أعمال واعدة. وحدثتني نفسي بأني لن أجد أفضل منك للاعتماد عليها في عملي الخاص الذي أديره.

ظل وجه يامينة على حاله لم يتغير، فاستطردت:

- أنا أدير نشاطًا خاصًّا مثله مثل هذا المطعم ومثل حمام لقمان حيث تعملين ولكنه ذو طبيعة مختلفة؛ فأنا لا أعمل مع العرب مثلهم، كل زبائني من البلچيك الأثرياء. أنا يا عزيزتي معنيَّة بترتيب الحفلات الخاصة بهم، تلك المناسبات التي يُحيون فيها ذكرياتهم حين كانوا يمضون شبابهم بالجزائر.

بدأ الاهتمام يظهر على وجه الفتاة عند شرح طبيعة العمل.

- في البداية كنت أعمل وحدي، بيدَ أن نجاحي في هذا المجال أذاع صيتي وزاد الإقبال على خدماتي. لم أفكر في الاستعانة بأحدٍ من قبل مهما كلفني الأمر، فأنا أحرص جدًّا على نوعية الخدمة المقدمة ولا أغامر باسمي وسمعة أعمالي أبدًا. ولكني عندما رأيت حُسن تصرفك في الحمام وذكاءك وبراعتك قلت في نفسي: لماذا لا أمنحها فرصة لتزيد من دخلها وتُعجِّل في إجراءات إقامتها ثم الجنسية؟

شكرتها يامينة وصمتت ثانية لتنصت.

- طبيعة العمل أسهل من الحمَّام، فلا حاجة بك للوقوف يومًا كاملًا، سنجني في ساعة ضعف يوميتك، ولو عملت بجد لاستطعنا تنسيق أكثر من مناسبة في اليوم. في البداية سأصطحبك معي عند كل عميل؛ حتى أطمئن لعملك وعندئذٍ قد نفترق، أرسلك لعميل بينما أعالج أنا الآخر وهكذا.

- أنا أيضًا أجيد الطهي لو كان هذا يهمك فيما تبحثين عنه في مُساعِدتك الجديدة.

قالتها يامينة بلا اهتمام يُذكر كمن تريد المعاونة في استمرار الحوار فقط لا غير. تململت قليلًا باهية قبل أن تجيبها:

- الطهي طبعًا من مهام منسق الحفلات المهمة، لكنه كما تعلمين ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. فلكل حفلة طبيعتها والأجر على قدر المشقة. فهناك من نطهو له فقط، وهناك من يبحث عن سماع أغنية عربية بصوتي، أو بصوتك إذا استقر اختياري عليك في العمل معي.

ضحكت يامينة وقالت:

- لو سمعوا صوتي سأخسر الوظيفة.

التقطت باهية الخيط وتابعت عزف مقطوعتها:

- لو لا تُحسنِي الغناء فلربما كنت تُحسنين الرقص.

تفرَّست في ملامحها كلبؤة تراقب فريسةً أوشكت على النَّيْل منها.

- الرقص؟ ليته كان مصدر رزقي فأنا أجيده أكثر من أي شيء آخر.

ارتاحت كَتِفَا باهية، لم تدرك قبل الآن أنهما كانتا مُتصلِّبتين إلا عندما أرختهما، ألقت بظهرها على المقعد وقد شعرت بدُنوِّ الهدف.

- تعرفين أيضًا، زبائني من عِلْيَة القوم. ربما ود أحدهم أن يتحمَّم على طريقتنا، لكن ظروفه لا تسمح بالذهاب للحمام وسط الناس. دورنا كمنسقي حفلات أن ندبر له الحمام بالمنزل، لا تخافي هم لا يطلبون أكثر من ذلك.

أضافت جملتها الأخيرة حتى يستقر الطُّعم في بطن السمكة وتهضمه أكثر فأكثر، حتى إذا شدت خيطها تمكنت من أحشاء صيدها فلا تملك رفاهية الهروب. غير أن إجابة يامينة أفقدتها رُشدها للحظات، لم تصدق تلقائية الفتاة وهي تجيب:

- ولو طلبوا...، لا بأس بذلك ما داموا سيُجزلون العطاء.

- هكذا إذن؟ بهذه البساطة؟

- سيدة باهية، أنتِ لم تسأليني عن عذريتي بالأمس لتطلبي مني الطهو اليوم. أتيتُك لأفهم المطلوب والأجر ومتى نبدأ العمل.

لم يكن من الممكن أن يخطر على بال يامينة أن تناقش عملها كعاهرة بتلك الفجاجة. لكن السنوات الخمس الأخيرة قد فعلت بها ما لم تفعله الثلاثة والعشرون عامًا عمرها الكامل على الأرض. يتيمة الأم منذ أن كان عمرها أربعة عشر ونيِّفًا. قُتل أبوها في تفجير حافلة كان يستقلها والتحق أخوها بالمجاهدين بعد أن أكَّد لها أنهم أبرياء من دم أبيها وأنهم يحاولون تخليص البلاد من القاتل. تركوها وحيدةً تسبح يوميًّا بين ضفَّتَي النهار لتُبقي رأسها طافيًا فوق بحر الظلمات. لم تلتحق بالجامعة وعملت بائعة في محل ملابس داخلية. تعرَّفت إلى مولود الشهير ببخصيصو، متعطِّل عن العمل يستيقظ في الظهيرة ليقف بالشارع حتى تعود من العمل. يقف معها قليلًا، تشتري له الدخان. سجائر فرنسية فقط، فمركزه لا يسمح بتعاطي السجائر المحلية. كان الوضع محتملًا قبل أن تمتد يده عليها ليضربها أول مرة. أراد شراء سروال جديد ولم يكن معها ما يكفي من الدراهم فصفعها في الشارع.

لم تتحمل الإهانة في أول الأمر ثم ابتلعتها في صمت خشية أن تفقد أنيسها الوحيد فأعطته المبلغ المطلوب. صفعها ثانيةً عندما أراد صديقه صنهاجي اقتراض شقتها ليعبث مع صديقته صباحًا وهي في العمل. وافقت أخيرًا بشرط أن يتم ذلك في المساء، أعطتهما حجرة أخيها واختلت ببخصيصو في حجرتها، لا تأتمنهم على المفتاح وقضاءٌ أخفُّ من آخر.

توالت بعدها الصفعات بسبب أو من دون، تحملت حدَّة طباعه وتعدِّيه على مالها وبيتها هو ورفقاؤه الأوغاد كيلا تبقى وحيدة. من طفلة مدللة لقوَّادة تتقاضى أجرتها صفعات وركلات في أقل من عشر سنوات. ثم قُتل بخصيصو في وَضَح النهار، أطلق عليه النار ملثمون. لم تبحث الشرطة عن القاتل، فعندما يطلق ملثمون النار تشيع التهمة ويُذاع أن الإرهاب عدو الوطن ويجب التخلص منه. تخلصوا منه إذن، ماذا يجب عليَّ أنا أن أفعل؟ قالت لها نجاة صديقة صنهاجي إنها سمعت من الناس أن من قتله هو أخوها. صحت التهمة أم لم تصحَّ، ما عاد المكان آمنًا. جددت المفاتيح وباعت ذهبها وذهبًا لأمها، ولم يمضِ شهر حتى كانت هنا في مولانبيك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

36

عام كامل منذ أن فصَّلت رداءً لزاكية الجميلة، فاتحة الخير عليها هي وأبوها لتصبح من بعدها مشروع سيدة أعمال. اليوم ما من فتاةٍ في جامعة باب الزوَّار إلا وتعرف فاطيما الراعي الرسمي لأناقة الجميلات. ما من طالب إسلامي الهوى إلا وحاول أن يثنيَها عن مشروعها لصالح الحجاب ترهيبًا وترغيبًا فلم يفلح. حرب باردة ناعمة أكسبت ملابسها شعبية لم تحلم بمثلها، انضم لحزبها أثرياء وبسطاء، منشغلات بالسياسة ومهمومات بالجمال، مثقفات وبلهاء وآخرون.

خدمتها جبهة الإنقاذ من دون أن تدري، رغم خلافها معهم فهي تشعر في داخلها بأنها مَدِينة لهم بالكثير. الكثير جدًّا.

أرادت إنعاش مشغل صالح بعد أن حاكَتْ قطعةً هنا وأخرى هناك. طبعت بطاقات صغيرة ملونة بعنوان مشغل "شي صالح" ووضعت عليها اسمها وفرقتها الدراسية كحلقة الوصل. يمكنك أن تعطيَها القماشة في الجامعة وتختار التصميم من مجلات تحملها معها يوميًّا وتأخذ مقاسات الطالبة تدوِّنها في كراسة أعدتها خصيصًا لذلك، وكانت البطاقات هي حبة الكَرَز فوق قشدة الكعكة.

فطن الإنقاذيون لمشروعها الصغير قبل أن يكبر واستشعروا خطرًا قادمًا يهدد عرش العباءات اللائي يروجون لارتدائها. جمع الغَيُورون على الدين ما تيسَّر من تلك البطاقات وأحرقوها في وسط الجامعة. التفت المناهضون لتيارهم إلى تلك اللفتة فبدءُوا في تقطيع وتشويه ملصقات الحجاب للرد عليهم. لم يتجرَّأ أحد على تلك الملصقات قبلًا لكنهم لم يجدوا هدفًا آخر للتعبير عن استيائهم.

يوم لا يُنسى اشتعلت فيه موجة غضب أخرى بين الفريقين، لم تعبأ فاطيما بحقيقة تلك الغضبة قدر دهشتها بتحوُّلها في غمضة عين إلى رمز... رمز المقاومة، رمز الهُويَّة التي تكافح كيلا تنطمس. لم تُرِدْ أكثر من أن تبدأ مشروعًا صغيرًا تتكسَّب من ورائه وتعيد لوالدها حماسه للحياة، فأصبحت أيقونة الرفض بالصدفة.

أصابها ما يصيب بيدق الشطرنج الذي وصل بعد سعي بطيء لآخر الرقعة فترقَّى وزيرًا من حيث لا يحتسب. تود أن تهدي نجاحها لزملائها ناشطي جبهة الإنقاذ، فما نالته بغبائهم ما كانت لتناله بالعمل الدَّءُوب، حقًّا وقد يأتيك رزقك على يد أكبر مُبغضِيك.

عامٌ مرَّ على تلك الجلسة التي تغير على أثرها كل شيء. ما عادت تزوره في منزله بعد أن تيقنت أن شعورًا ما على وشك الميلاد. سدًّا للذرائع آثرت الاكتفاء بمقابلته في المقاهي العامة سويعات في الشهر. لم تعرف أي ذرائع تسد، ذرائعها أم ذرائعه ولكنها عرفت أن خطًّا عريضًا حق له أن يُرسم فورًا فشدته.

اليوم تبحث عنه جاهدةً تريد مناقشته فيما تتداوله نشرات الأخبار. أمرٌ جلَلٌ تكتبه الصحف وتتداوله محطات الراديو والتلفاز بفرحة عارمة. حَدْسُها يُنبئها بأن ما يُفرحهم ليس بالضرورة مفرحًا، اعتادت تخوينهم ولم تخنُها عادتها، دومًا كانت

تصيب. فقد خرجت نتيجة الاستفتاء الشعبي على قانون الوئام المدني الذي تمركزت حوله دعاية بوتفليقة الانتخابية. تعلم جيدًا أنه ليس برئيس منتخب مثل رؤساء فرنسا، كما أن نتيجة الاستفتاء مُعدَّة مسبقًا.

بصدور القانون تعفو الدولة عن المسلحين في الجبال، من لم يكن مطلوبًا منهم في جريمة إرهابية. هذا وقد أكَّد فخامة الرئيس أهميةَ لَمّ شمل البلاد والعباد وفتح صفحة جديدة على من لم يَلِغْ في دم أخيه، وقد عفا اللـه عما سلف فالعفو من شيم الكرام.

ضايقها انشغال أصحاب الحوانيت بتجاراتهم، كأن الأمر لا يعنيهم. ما عادوا ينظرون للخلف، فالمشهد مريع، بل ما عادوا ينظرون للأمام أيضًا فالرؤية زائغة. سنوات الدم تقصر نظرك وتحدُّه في نصف دائرة فائقة الصِّغَر حدودها اليوم ومَن تعول.

عرَّجت مسرعةً على منزل محسن وطرقت الباب، لم يفتح أحد فهُرعت تجاه مقهى البلوسكاي، اعتاد جلسته منذ أن عرفته به. وجدته جالسًا ممسكًا بجريدة الوطن ومنخرطًا في نقاش حاد مع قرناء له لم تعرفهم من قبل، أطرتها حقيقة أنها لم تُستبدل بأخرى ولكن بآخرين.

عنَّفتها نفسها على هذا الشعور، نفضته مسرعةً من رأسها قبل أن تقاطع حوارهم مُسلِّمةً على أستاذها.

تهلل إذ رآها وقدمها لأصدقائه قائلًا:

- فاطيما ابنتي.

صِدق صوته أصابها بخيبة أمل سريعة، كانت قد أقفلت المحضر على كونها أنثى مغربية قد تسلب لُبَّه، أما البُنوَّة فقد سحبت منها هذا الامتياز.

أجلسها وطلب لها شايًا وأكمل حديثه مستطردًا، هي أتت من أجل الموضوع ذاته، كل رواد القهوة يناقشون القانون الصادر، فالانشغال بغير الوقت الراهن رفاهية لا يملكها الجميع. أذهلها أن الحضور منصتون له بتركيز، لم يلتفت أحد لكونه ليس جزائريًّا وللحق لم تَشِ لهجته بذلك على الإطلاق. كان يدافع بشدة على قانون الوئام الوطني مقنعًا جلساءه بجدواه. تذمر أحدهم بأنها فرصة ذهبية لمجرمي جبهة الإنقاذ للإفلات من العقوبة، فعاجَله محسن بأهمية التوقف قبل أن تفنَى البلاد والعباد على يد تلك الساقية التي لا تقف حتى لتلتقط أنفاسها.

تعلو وجهه خيبة أمل فيمن يتمنون دوام الحال طمعًا في معاقبة المذنبين. خاب ظنها في قائدها الثوري الذي أغمد سيفه وصار يدعو الحملان لتصديق الذئب.

لاحظ صمتها فاستأذن منهم معتذرًا وأخذها واتجه بها نحو سيارته.. يشعُّ الحماس من عينيه، تلمعان برغبةٍ عنيدةٍ في الحياة، تخيَّلت أن روحًا شابَّة سكنت محل روحه الخاملة.

- ألستِ جائعة؟ في يوم كهذا أريد أن أذهب لتمانفوست وآكل أسماكهم بجانب البحر. هلَّا أكلت معي؟

هل تقوى على الرفض؟ وهي مَنْ تعرف قصة مادونا؟ دلفت بجانبه في السيارة وسألته قبل أن يضع المفتاح ليديرها:

- أراك تدافع عنهم، أمقتنع حقًّا أم تُداهِن؟

علت وجهَه مسحةُ عتابٍ بدت أوضح في نبرات صوته:

- وهل داهنت قبلًا؟ ومَن أداهن؟ إن من أفسد شيئًا فعليه إصلاحه. ألم يأنِ بعد وقت الإصلاح يا بْنَتِي؟

- وقتلة فريـال؟ (قاطعته مستنكرةً).

- قتلة فريـال هم من أصدروا هذا القانون يا بْنَتِي.

- ومع ذلك تستحسنه؟

- دعي العواطف جانبًا، وفكري، ما جدوى استكمال الصراع؟

- ليستمر حتى نقتص من كل من استباح دماء أخيه.

- هو لم يبدأ لذلك ولن ينتهي بنهايتها. أتظنين حقًّا أن استمراره سيقتص من القتلة؟ كيف وهم من نفخوا في ناره لتشتد؟ لقد اكتفوا من الدم؛ فلنحمد اللـه ولنرضَ من الغنيمة بالإياب.

- لا أفهم كيف خدعوك لتصدق أنهم يعملون لصالح الشعب؟

- لم أَقُلْ هذا يومًا، وربما لن أقوله أبدًا.

الحيرة في وجهها دعته للاسترسال:

- هذا الوحش الذي يأكل الأخضر واليابس، هل سيشبع؟ أم أنه يزداد نهمًا وشراهة؟ من منَّا لم يقضِ منه الإرهاب وطرًا؟ لا أعني بالضرورة قتلى وإن كدت أزعم أن عائلتك قدمت نفسًا أو بعض نفس كقرابين لهذا الغول، فريـال مثلًا. زوجتي وابنتي، أمك وأختك... لم نفقد القليل يا فاطيما فعلامَ تندمين؟

استشعرت بعض الوجاهة في رأيه فلم تجادل، خرجا من شوارع المدينة إلى الليتورال فاستمتعت بهواء البحر القادم من ناحيته. أرخت رأسها للوراء وزفرت قلقها في نفَسٍ عميق. حقًّا، لماذا نتشبث بمعركة يخسر فيها الجميع؟ ربما كان الإفراط في الخسارة هو السبب، حيث نصل لنقطة اللاعودة بعد ألَّا يصبح لدينا المزيد لنخسره. ينصبُّ تركيزنا على إلحاق خسارة أكبر بالخَصْم أيًّا كان الثمن حتى لو تكبدنا نحن ما هو أفدح، لا يهم.

خرجت خاطرة من فمها مندفعة:

- هل لأنك لست طرفًا في الصراع فلا تبالي؟

رفع يمناه بجوار جبهته مُحتجًّا وأجابها:

- خسرت مثلك وربما أكثر، كما أن هناك مجهولًا أصر على إقحامي أنا من دون غيري في هذه المعمعة بخطاباته المجهولة أم نسيتِ؟

ذيَّل فكرته باللمسة الأخيرة مردفًا:

- وهل ينظر الموت على جنسياتنا فيأخذ ويترك؟

آثرت الصمت لباقي الطريق. القرية الصغيرة تقترب، تعرفها من باعة البوزلوف المتجولين. الشمس تنشر نورها ودفئها على تمانفوست حتى خُيِّل له أنها تحتفل معهم بالعهد الجديد.

مطاعم السمك منتشرة على شكل قوس كبير ثلاثة أرباع الدائرة. بعضها يطلُّ مباشرة على البحر. لا تسمع سوى صوت الأمواج على قوارب الصيد الصغيرة وصوت طقطقة القشريات فوق حديد الشوايات.

يشبه أصوات الشيّ عند المذبح حول منزلها وإن اختلفت الرائحة. اختارت مطعمًا ذا شرفة كبيرة بيضاء، جلسا إلى طاولة تقابل البحر، تركها شاردةً ودخل بحماسٍ شديدٍ ينتقي الأسماك ويُملي عليهم طريقة الطهي. القريدس بالطماطم والثوم والمقدونس، وتلك السمكة تشويها بالزيت وهؤلاء الصغار يصلحون للقلي. سلاطة مشوية وزيتون وهريسة، البطاطا المقلية مع كثيرٍ من الخبز، زجاجة كبيرة سيليكتو، لا شكرًا لا أريد النبيذ.

جلس قُبالتها تعلو وجهَه سعادةٌ لم تَرَ مثلها منذ زمن. أساريره متهللة كمحارب عائد لبيته بعد نصر شاق طال انتظاره. لماذا لا تشاركه الفرحة إن كان هناك ما يُفرح؟.. لم يطُلْ صمود انقباضها أمام أبخرة الطعام الزكية، تعلمت في السنين الخالية أن لا حزن يطول ولا فرح. أتاهما النادل بالشاي بعد أن مسح المائدة من آثار المعركة. أشعلت سيجارة وهي تنصت لتحليله وقد عاد لارتداء حُلَّة المدرس:

- اتقوا اللـه فقد كفى ما كان، اتقوا اللـه فحالنا لا يُرضي إنسانًا... ألا يكفي يا فاطيما كل تلك الجثث؟ فكِّري معي، من سيحاسب الچنرال؟ لا أحد بالقطع. لو استمر التطاحن من الخاسر؟ لا تنظري خلفك يا بُنَتي، ما كان قد كان. تلك السنوات كانت مطلوبة ليكره الجميع الديمقراطية والمعارضة والإسلاميين، وقد كان. استمراره خسارة أفدح للجميع حتى لمَن أشعل النار تعيَّن عليه إطفاؤها قبل أن تحرقه. صدقيني نحن الآن على أعتاب جزائر جديدة، قريبًا جدًّا سننظر لتلك السنين كماضٍ أسود وندعو اللـه أن يدفن هذا الماضي في بحر الظلمات.

أنهى حديثه ومد بصره شاخصًا للأفق البعيد فوق سطح البحر وقد بدا سعيدًا متفائلًا، تفرَّست في وجهه ورأت بوضوح آثار مشرط الزمن وصبغته البيضاء على رأسه، بيد أن السعادة كانت تتدفق من وجهه كدلافين تتقافز فوق سطح الماء الأزرق الساكن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

37

شرفة منزلها في مولانبيك صغيرة جدًّا، بالكاد تحتويها جالسةً تلصق ركبتيها بالسور الحديدي وظهرُها مستند إلى الحائط. تفتقد أحيانًا فراء الكبش الذي يغطي بلاط الموزاييك الرخيص في شرفة أكبر كثيرًا على الطرف الآخر من البحر المتوسط كانت لها يومًا.

أشعلت سيجارة وسحبت منها نفَسًا عميقًا وهي تغلق باب الشرفة الزجاجي بإحكام. زهرة ليست بالمنزل، فقد ذهبت لتوزيع لفافات الحشيش على زبائن خالد، عمل يستغرق ساعتين على الأقل، فهي تبدأ بشراء الأزهار وتنسيقها في سلة الخوص الأنيقة التي تخفي تجارتها الحقيقية، ولا تعود حتى تُنهي ما في جعبتها وترد النقود لصاحبها آخر اليوم.

لا تعرف أنه اليوم في دارهم، أتى بعد أن خبَّأ كنزه في سلَّتها وقبَّل جبينها، ثم انطلق إلى دارها مطمئنًا لانشغالها لفترة تكفي وتزيد.

كما لا تعرف وضعه الجديد كزوج أمها باهية. رباط غير مقدس بالمرة لا يساوي سعر الحبر المكتوب به، بيدَ أنه بوَّابتها الذهبية لإقامة شرعية تعقبها جنسية تؤمِّن بها حالها وحال ابنتها.

ثلاث مرات شهريًّا يزور خالد زوجته بغير علم ابنتها. يأتي ليحصل على حقِّه الشرعي فيقضي وَطَرَه من يامينة مندوبتها السامية فيما يخص أي التحام جسدي. تُطمئن نفسها بأنها أرقَى وأرفَع من أن تمارس الفُحْش بنفسها. مريحة تلك الفكرة رغم هشاشتها، تجيب دومًا باقتضاب: "ما نوسَّخش يديَّا".

تقولها بصوت مرتفع نسبيًّا لتُخرس صوت عقلها الذي يعلم يقينًا أنها لم تعُد تصلح لتوسيخ اليدين أو غيرهما. زوجها نفسه لم يجد أدنى حرج وهو يراودها عن يامينة نظير جزء من شهريته كزوج.

ببراعة النخَّاس أقنعته بالتنازل عن راتبه مقابل عمل زهرة المجاني لصالحه وثلاث مرات بالشهر مع يامينة.

في البداية كانت تترك المنزل وتذهب إلى الحمَّام مرة أو تجلس على مقهى. لم تعُد بحاجة للانتقال بعد تكرر الزيارات. صار الوضع أكثر أريحيَّة وزال التوتر. ما عاد يؤلمها أن يأتي زوجها لبيتها ليمارس حقوقه مع أجيرتها، فقد صار جواز سفرها البلچيكي قاب قوسين أو أدنى وهو كفيل بتسكين ما بها من آلام. يامينة أيضًا لا تبخل أبدًا بل تصبُّ عليه الحنان صبًّا، فهي زوجته التالية بعد طلاقه المرتقب من باهية يوم تمام تجنُّسها. دورها قادم حتى تحصل على أوراقها هي الأخرى وتتخلص من عملها تحت باهية.

تتركهم بالداخل وتختلي بنفسها في شرفتها مع دخانها وقهوتها، غير أنها لم تستطع كبح جماح دمعة انفجرت من عينها عندما سمعت مذياع بعيد يصدح برائعة دحمان

الحراشي:

"يا لرايح وين مسافر تروح تعيا وتولي".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

38

عيد ميلاد رتيبة يقترب وهو لا يعرف حقًّا ماذا عساه يهديها. تذكَّر فاطيما وهي تروي له بفخر عن نجاحها في التفصيل، وكيف أعادت الحياة لمشغل أبيها الذي توقف نبضه لأعوام.

سألها إن كانت تحب هديتها من هذا المشغل، وأخرج لها بطاقته التي أعطته إيَّاها فاطيما في تمانفوست. لمعت عيناها في سعادة ودهشة:

- شي صالح؟ أحقًّا هو أم مشغل آخر ينتحل اسمه؟

- لم أكن أعرف أنه شهير لهذا الحد حتى ينتحل آخر شخصيته.

- صالح لسطيفي أشهر خياط نسائي!

خرجت من فمها متعجبةً كيف لا يعرفه.

- لم أرْتَد مشغله قبلًا فهو قبلة علية القوم فقط، أو هكذا كان. أتعرف، كانت له طفلة أو اثنتان بمدرستنا لكنني لم أجرؤ على استغلال منصبي للحصول على ثوب أو أكثر فأنا عزيزة النفس كما تعرف.

ثم استطردت ضاحكة:

- ثم من ذا الذي يتملق مُدرِّسة الموسيقى؟ أكاد أجزم أن المدرسات الأخريات لبسن الحرير من يديه. لكني سمعت أنه أغلق حانوته أو سافر لست واثقة.

- ها هو قد عاد مع قانون الوئام.

أجابها باسمًا ليغيظها. يعلم توجُّسها من تلك المصالحة. ثم أردف:

- ليس صالح فحسب الذي عاد، رشيد أيضًا ومطعمه الخشبي الفاخر بطرازه الأوروبي في قلب غابة بوشاوي صار آمنًا وسأدعوك هناك اليوم.

- أتعني شي رشيد؟ أحقًّا سنستطيع الذهاب إلى الغابة؟ أم أنك تستدرجني أيها الماكر؟

كان وجهها ضاحكًا مشرقًا وهي تمازحه، مَن لا يعرف سمعة غابة بوشاوي كمُلتقًى العشاق؟

ضحكا ملء شدقيهما وهما يتخيلان جلستهما أسفل أشجار الصنوبر بمعزل عن الناس؛ ليتطارحا الغرام كالمراهقين.

تعرف طريق مشغل صالح حتى وإن لم تكن من زبائنه، كانت تهزُّ رأسها عند كُلِّ منعطف مؤكِّدةً أنه على الدرب السليم. طراز المحل العتيق يشبه واحة تنزعك من أيام الرعب برقَّة وتعود بك إلى السبعينيات الجميلة، تقف فيها العاصمة البيضاء مقابلةً لمارسيليا على ضفَّتَي المتوسط لا تعرف أيهما أجمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

39

تهللت فاطيما لاستقبال محسن ورتيبة، عرفتها المُدرِّسة وقبَّلتها بينما كان محسن وصالح يتبادلان عبارات المجاملات المحفوظة.

رمقتهما فاطيما بجانب عينها، أبوها وقد عاد به الزمن عشر سنوات على الأقل بعد أن استعاد مهنته. شاربه المهذب وظهره المفرود، نظارته اللامعة وملابسه الأنيقة. ملأ المشغل فراغ روحه فصارت فاطيما أنيسته ومنقذته من الهلاك.

محسن كذلك يبدو هاشًّا باشًّا، لا أظنه ينفق دراهمه على مادونا لتجالسه بعد اليوم. غُصَّة قصيرة في الحلق ذهبت فور أن نصحها عقلها بأنه لا يصح إلا الصحيح.

يوم جميل أسعد رتيبة وسعد بها. آمنت معه بجدوى الوئام بعد أن تجولا معًا بلا خوف في الغابة وأكلا عند رشيد سمكة ضخمة. المطعم يعجُّ بالرواد، ينهل الجميع من السعادة فاقدين الثقة في دوامها. عشر سنوات غلاظ تعلموا فيها أن يغتنموا اللحظة فالغد غير مضمون. عادا إلى العاصمة وعيناهما تشعَّان بالرضا، كيف لا وقد ارتادت شي صالح وشي رشيد معًا في يوم مولدها؟

- هل بمقدوري أن أوفِّيك شكرًا يا محسن؟

احتضنته وقبَّلت وجنتيه بامتنان واضح قبل أن تتركه لتصعد إلى بيتها.

تحسَّس مكانها بعد أن غابت عن ناظريه، وترك دفء أثرها يتسلل لقلبه رويدًا رويدًا فتتسع ابتسامته.

تمهَّل قليلًا في مدخل مسكنه عندما لمح خطابًا في صندوق البريد.

أطلق زفرة ارتياح عميقة عندما لاحظ المربعات الحمراء والزرقاء على إطار الظرف وطابع البريد الإيطالي بصورة الكولوسيوم. وضع الرسالة في جيب كنزته الداخلي بجانب قلبه، استراح الآن فؤاده وقد اطمأن على مراسله المجهول أنه أخيرًا في مرفأ آمِن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المؤلف في سطور

محمد إسماعيل

- من مواليد القاهرة عام 1974.

- مهندس اتصالات.

- شغل العديد من الوظائف الإقليمية في شركات الاتصالات العالمية.

- حصل على ماجستير في إدارة الأعمال من MBAIP جامعة السوربون بباريس، وبكالوريوس الهندسة الإلكترونية من جامعة عين شمس.

- باب الزوار هي ثاني أعماله بعد "ما حدث في شنجن" من إصدارات الكتب خان.

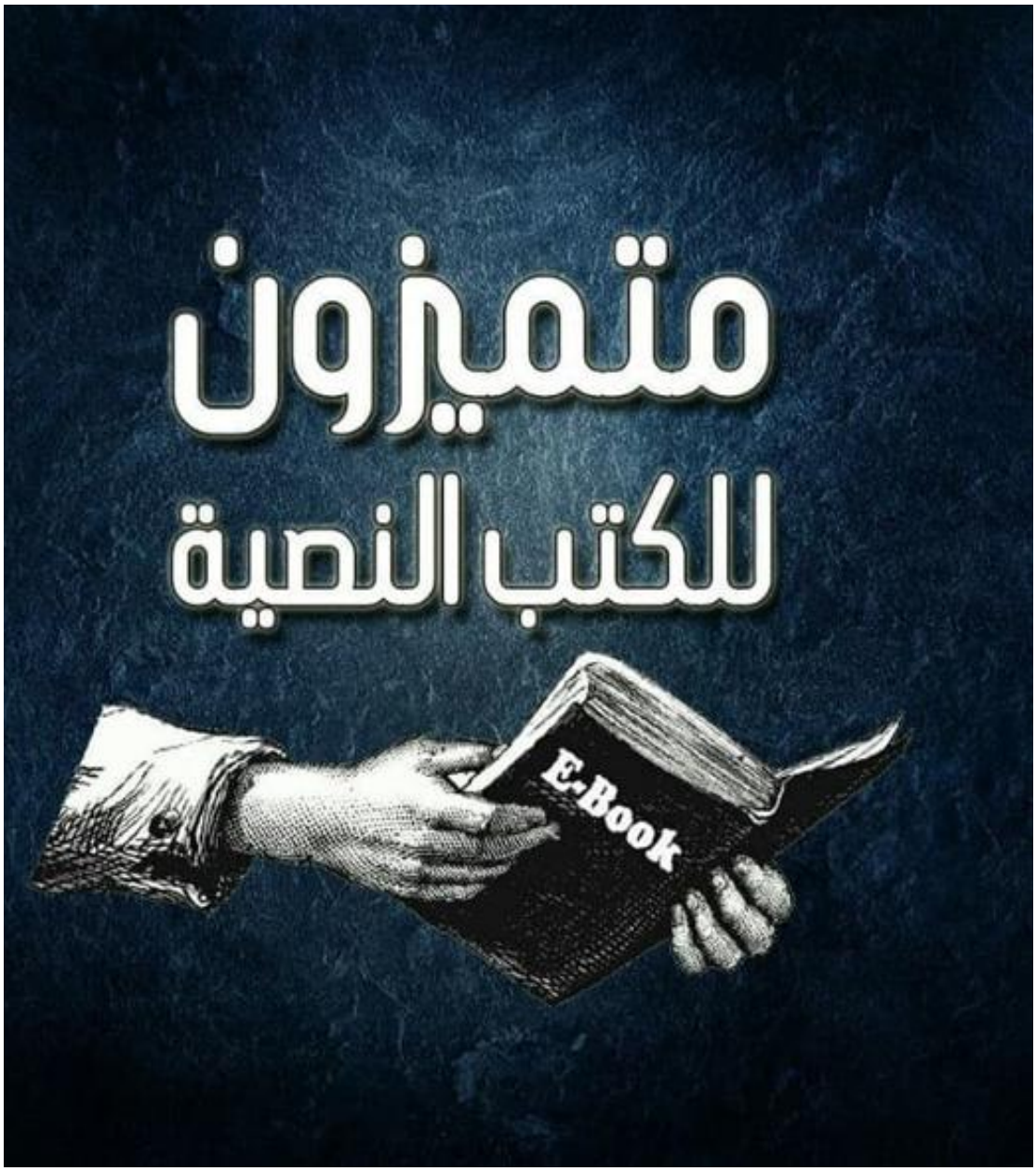
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

نبذة عن الرواية..

الإهداء

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
المؤلف في سطور

Notes

[←1]

.Une Seule personne à la fois (1)

[←2]

(1) كاتب جزائري وباحث في الشأن الأمازيغي. مُنعت إحدى محاضراته في جامعة تيزي ووزو عام 1982 واندلع بعدها ما يُسمى بالربيع الأمازيغي. يُشتبه أن وفاته كانت اغتيالاً سياسيًّا.

[←3]

(2) مسمى آخر للأمازيغ.

[←4]

(1) قسَنْطِينة عاصمة الشرق الجزائري.

[←5]

(2) لباس تقليدي للنساء في الشرق الجزائري.

[←6]

(1) البغرير نوع من الخبز أو الحلوى يشبه أقراص القطائف، والمحاجب مُعجَّنات رقيقة تشبه الفطير.

[←7]

(2) مسمى يُطلق على الجزائريين الموالين لفرنسا وقت الاستعمار.

[←8]

(1) اسم آخر للقبائل والأمازيغ.

[←9]

(1) حبَّة البركة.

[←10]

(1) أغنية جزائرية كلمات وغناء دحمان الحراشي، صدرت عام 1973 وتتحدث عن معاناة المغتربين.

[←11]

(2) ورق شجر قريب من ورق أشجار الكافور.

[←12]

(1) كاتب وأديب جزائري، من أشهر رواياته "نجمة"، كان يكتب باللغة الفرنسية.

[←13]

(1) حلوى تتكون من طبقتين من عجين السميد بينهما طبقة من عجوة التمر.

[←14]

(2) أكلات جزائرية.

[←15]

(1) أكلات جزائرية.

[←16]

(2) الهريسة: معجون الفلفل الحار.

[←17]

(3) رأس الحانوت: خليط متنوع من البهارات المغاربية.

[←18]

(4) مشروبات غازية جزائرية.

[←19]

(5) مُخدِّر الحشيش.

[←20]

(1) جلباب صوفي تقليدي يُرتدى فوق الملابس كالمعطف.

[←21]

(2) تمرد في منطقة القبائل بسبب إنكار الدولة لهُويَّتهم الأمازيغية.

[←22]

(1) يشبه طاجن لسان العصفور، واشتهر به يهود الجزائر قبل هجرتهم.

[←23]

(1) متواجدة بشكل غير رسمي في البلد.